# سـورة الحج

هى مدنية إلا الآيات ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ فبين مكة والمدينة ، والأصح أنها مختلطة منها المكى ومنها المدنى ، قال العزيزى وهى من أعاجيب السور نزلت ليلا ونهارا ، سفرا وحضرا ، مكيا ومدنيا ، سلميا وحربيا ، محكما ومتشابها .

وآيها ثمان وسبعون .

وهى على حسب موضوعاتها أقسام ثلاثة :

(١) البعث والدليل عليه وما يتبع ذلك .

(٢) الحج والمسجد الحرام

(٣) أمور عامة كالقتال وهلاك الظالمين والاستدلال بنظام الدنيا على وجود الخالق وضرب المثل بعجز الأصنام وعدم استطاعتها خلق الذباب .

ومناسبتها للسورة قبلها من وجوه :

(١) إن آخر السورة قبلها كان فى أمر القيامة كقوله : يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب ، وقوله : واقترب الوعد الحق — وأول هذه السورة الاستدلال على البعث بالبراهين العقلية .

(٢) إنه قد أقيمت فى السورة السالفة الحجج الطبيعية على الوحدانية — وفى هذه جعل العلم الطبيعى من براهين البعث .

(٣) فى السورة السالفة وما قبلها قصص الأنبياء و براهينهم لقومهم ، وفى هذه السورة خطاب من الله للأمم الحاضرة ، وهو خطاب يسترعى السمع و يوجب علينا ولو إجمالا أن نعرف صنع الله فى أرضه وسمائه وتدبيره خلق الأجنّة والنبات والحيوان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ ، وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) .

## شرح المفردات

التقوى : التباعد عن كل ما يكسب الإثم من فعل أو ترك ، والزلزلة : الحركة الشديدة بحيث تزيل الأشياء من أماكنها ، والذهول : الدهش الناشئ عن الهمّ والغم الكثير ، والمرضعة : الأنثى حال الإرضاع والمرضع ما من شأنها أن ترضع ولو لم ترضع حال وصفها به .

## الإيضاح

( يا أيها الناس اتقوا ربكم ) أى يأيها الناس احذروا عقاب ربكم فأطيعوه ولا تعصوه بفعل ما أمركم به من الواجبات وترك ما نهاكم عنه من المحرمات ، وهذا خطاب ينتظم فيه المكلفون حين النزول ومن سيوجدون بعده إلى يوم القيامة .

ثم علل هذا الأمر بقوله:

( إن زلزلة الساعة شيء عظيم ) أى إن الزلزلة التى تكون حين قيام الساعة قبل قيام الناس من أجداثهم كما قال: « إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا. وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا » وقال : « وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً. فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ » الآية، وقال: « إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا. وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا » الآية ـ أمر هائل وخطر عظيم لا يقدر قدره إلا موجده ، وإذا كانت الزلزلة

وحدها لاتحتمل فما بالك بما يحدث فى ذلك اليوم من الحشر والجزاء والحساب على الأعمال لدى من لايغيب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

ثم بين شيئا من أهوال هذا اليوم فقال :

(١) ( يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ) أى فى هذا اليوم يبلغ الأمر من الدهشة والاضطراب والحيرة والذهول أن تذهل المرضعة عن ولدها الذى ترضعه وهو أعز شىء لديها ، فكيف بذهولها عن سواه .

(٢) ( وتضع كل ذات حمل حملها ) أى وتسقط كل ذات حمل الجنين الذى فى بطنها قبل التمام رعبا وفزعا .

قال الحسن : تذهل المرضعة عن ولدها بغير فطام ، وتضع الحامل مافى بطنها بغير تمام .

(٣) ( وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ) أى وترى الناس حينئذ كأنهم سكارى وما هم بسكارى على التحقيق ، ولكن شدة العذاب هى التى أذهلت عقولهم وأذهبت تمييزهم .

وقد يكون المراد من ذهول الحامل ووضع المرضع ضرب المثل لشدة الأمر و بلوغه أقصى الغايات كما يؤوّل به أيضا قوله تعالى : « يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً » .

---

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (٤) .

## المعنى الجملى

بعد أن أخبر فيما سلف بأهوال يوم القيامة وشدتها ودعا الناس إلى تقوى الله ـ بين أنه مع هذا التحذير الشديد فإن كثيرا من الناس ينكرون هذا البعث و يجادلون فى أمور الغيب بغير علم .

أخرج ابن أبي حاتم أن هذه الآيات نزلت فى النضر بن الحارث وكان جدِلا يقول : الملائكة بنات الله ، والقرآن أساطير الأولين ، ولا يقدر الله على إحياء من بَلِي وصار ترابا .

## الإيضاح

( ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ) أى ومن الناس من يتعاطى الجدل فيما يجوز على الله من الصفات والأفعال ، وما لايجوز عليه غير متبع فى ذلك حجة ولا برهانا ، بل بجهل بحقيقة مايقول ، فيزعم أن الله غير قادر على إحياء من بلى وصار ترابا ، وأن لله ولدا ، وأن القرآن ما هو إلا أسطورة من أساطير الأولين إلى نحو ذلك من التّرهات والأباطيل .

وقد ذم المجادلة بغير علم فأومأ إلى أن الجدل إذا كان مع العلم والحجة والبرهان فلا يذم ولا يقبح ، وعليه جاء قوله تعالى : « وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » .

( ويتبع كل شيطان مريد ) المريد المتجرد للفساد العارى عن الخير من قولهم شجرة مرداء إذا كان لاورق لها ورملة مرداء إذا لم تنبت شيئا ، أى ومن الناس من يتبع فى كل ما يأتى وما يذر من شئونه وأهوائه شياطين من شياطين الإنس والجن الذين يزينون له طرق الغواية ويسلكون به الطرق التى تزلق به فى المهاوى ويقودونه إلى الأعمال التى تصل به إلى النار من شرك بالله وعبادة للأوثان والأصنام وشرب للخمر ولعب للميسر إلى نحو أولئك مما يحسّنون له عمله ويكونون له فيه القادة الذين لايرد لهم قول ولا يقبح منهم فعل .

ثم وصف سبحانه ذلك الشيطان بقوله :

( كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير ) أى قدر أن من اتبع ذلك الشيطان وسلك سبيله أضله الله فى الدنيا بما يوسوس له ويدسّى

به نفسه ويزين لها من اتباع الغواية والفجور وسلوك سبيل المعاصى والآثام التى توبقه فى جهنم وبئس القرار .

وخلاصة ذلك — إنه يضله فى الدنيا ويقوده فى الآخرة إلى عذاب السعير بما يجترح من السيئات ، ويرتكب من الآثام .

---

يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِى الْقُبُورِ (٧) .

## شرح المفردات

الريب : الشك ، وأصل النطفة : الماء العذب ويراد بها هنا ماء الرجل ، والعلقة : القطعة الجامدة من الدم ، والمضغة : القطعة من اللحم بقدر ما يمضغ ، والأجل المسمى : هو حين الوضع ، والطفل : يكون للواحد والجمع ، والأشد : القوة ، وأرذل العمر : أدنؤه وأردؤه ، هامدة : أى ميتة يابسة من قولهم همدت الأرض إذا يبست ودرست ، وهمد الثوب : بلى ، واهتزت : أى اهتز نباتها وتحرك ، وربت : ازدادت وانتفخت لما يتداخلها من الماء والنبات ، زوج : أى صنف ، بهيج : أى حسن سار للناظرين ، والحق : هو الثابت الذى يحق ثبوته .

## المعنى الجملى

لما حكى سبحانه عن المشركين الجدل بغير علم فى البعث والحشر وذمهم على ذلك ـ قفى على هذا بإثباته من وجهين :

(١) الاستدلال بخلق الحيوان وهو ما أشار إليه فى الآية الأخرى : «قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ » وقوله : « فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا ؟ قُلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » .

(٢) الاستدلال بحال خلق النبات فى قوله وترى الأرض هامدة الخ .

## الإيضاح

( يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث ) أى إن كنتم فى شك من مجىء البعث فانظروا إلى مبدإ خلقكم ليزول ريبكم وتعلموا أن القادر على خلقكم أول مرة قادر على إعادة خلقكم ثانيا .

وعبر سبحانه بالريب مع أنهم موقنون بعدم حصوله ، إيذانا بأن أقصى ما يمكن صدوره منهم وإن بلغوا غاية المكابرة والعناد ـ هو الارتياب فى شأنه ، أما الجزم بعدم إمكانه فلا يدور بخلد عاقل على حال .

ثم ذكر سبحانه من مراتب الخلق أمورا سبعة :

(١) ( فإنا خلقناكم من تراب ) إذ خلق الإنسان من المنى المتولد من الأغذية ، والأغذية تنتهى إلى النبات وهو يتولد من الأرض والماء .

(٢) ( ثم من نطفة ) أى ثم من منى مكون من الدم المتولد من الغذاء المنتهى إلى التراب .

(٣) ( ثم من علقة ) أى ثم من دم جامد غليظ ، ولا يخفى ما بين الماء والدم من المباينة والمخالفة .

(٤) ( ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ) أى ثم من قطعة من اللحم مسواة لانقص فيها ولا عيب فى ابتداء خلقها ، ومضغة غير مسواة فيها عيب ، وبهذا التفاوت فى الخلق يتفاضل الناس فى صورهم وأشكالهم وطولهم وقصرهم .

( لنبين لكم ) أى خلقنا كم على هذا النمط البديع لنبين لكم جميل نظامنا وعظيم حكمتنا التى من جملتها أمر البعث .

( ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ) أى ونبقى ما نشاء من الأجنّة إلى الوقت الذى قدر أن تلد المرأة فيه .

(٥) ( ثم نخرجكم طفلا ) أى ثم نخرجكم من أرحام أمهاتكم إذا بلغتم الأجل الذى قدرته لخروجكم منها أطفالا صغارا فى المهد .

(٦) ( ثم لتبلغوا أشدكم ) أى ثم يعمركم ويسهل تربيتكم حتى تبلغوا كمال عقولكم ونهاية قواكم .

(٧) ( ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ) أى ومنكم من يتوفى على كمال قوته وكمال عقله ، ومنكم من يبقى حتى يبلغ الهرم والخَرَف فيصير كما كان فى أول طفولته ضعيف البنية سخيف العقل قليل الفهم.

وخلاصة ذلك — إنه إما أن يميتكم أو يردكم إلى أرذل العمر الذى يُسلب فيه العلم والقدرة على العمل .

ثم ذكر الاستدلال على إمكان البعث بحال خلق النبات أيضا فقال :

( وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ) أى وترى الأرض يابسة دارسة الآثار من النبات والزرع ، فإذا نحن أنزلنا عليها الماء تحركت بالنبات وازدادت وانتفخت ، لما يتداخلها من الماء والنبات ، ثم أنبتت أنواعا تسر الناظرين ببديع منظرها ، وجميل شكلها ، واختلاف طعومها وروائحها ، ومقاديرها ومنافعها .

و بعد أن قرر سبحانه هذين البرهانين رتب عليهما النتيجة الحتمية لذلك ، وذكر أمورا خمسة :

(١) ( ذلك بأن الله هو الحق ) أى هذا الذى ذكرت لكم من بدئنا خلقكم فى بطون أمهاتكم ووصفنا أحوالكم قبل الميلاد و بعده طفلا وكهلا وشيوخا فى حال الهرم ، وتنبيهنا إياكم إلى فعلنا بالأرض الهامدة بما ينزل عليها من الغيث — لتصدقوا بأن الذى فعل ذلك هو الله الحق الذى لاشك فيه ، وأن ما تعبدون من الأوثان والأصنام فهو باطل ، لأنها لاتقدر على فعل شىء من ذلك .

(٢) ( وأنه يحيى الموتى ) أى ولتعلموا أن الذى قدر على هذه الأشياء البديعة لايتعذر عليه أن يحيى الموتى بعد فنائها ودروسها فى التراب .

(٣) ( وأنه على كل شىء قدير ) أى وأن فاعل ذلك قادر على كل شىء ولا يمتنع عليه شىء أراده ، فهو قادر على إيجاد جميع الممكنات ، ومن ذلك إعادة الأجسام بعد موتها .

(٤) ( وأن الساعة آتية لا ريب فيها ) أى ولتعلموا أن الساعة التى وعدتكم أن أبعث فيها الموتى من قبورها آتية لامحالة ولا شك فى حدوثها وليس لأحد أن يرتاب فيها .

(٥) ( وأن الله يبعث من فى القبور ) أى ولتوقنوا بأن الله حينئذ يبعث من فى القبور أحياء إلى مواقف الحساب .

وخلاصة ذلك — إنكم إذا تأملتم فى خلق الحيوان والنبات أمكنكم أن تستدلوا بذلك على وجود الخالق وقدرته على إحياء الموتى وعلى غيرها من الممكنات ، وأن الساعة آتية لاشك فيها ، وأنه يبعث من فى القبور للحساب والجزاء ، ولولا ذلك ما أوجد هذا العالم ، لأن أفعاله تعالى مبنية على الحكم الباهرة ، والغايات السامية .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ (٨) ثَانِىَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُ فِى الدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ (١٠) .

## شرح المفردات

الهدى : الاستدلال والنظر الصحيح الموصل إلى المعرفة ، والكتاب المنير : الوحى المظهر للحق ، ثانى عطفه : أى لاويا جانبه متكبرا مختالا ونحوه تصعير الخد ولىّ الجيد ، والخزى : الهوان والذل ، عذاب الحريق : أى عذاب النار التى تحرق داخليها .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر فى الآية قبلها حال الضلّال المقلدين الذين يتبعون أهل الكفر والمعاصى ـ أردف ذلك بذكر حال الدعاة إلى الضلال من رءوس الكفرة والمبتدعين .

## الإيضاح

( ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ) أى ومن الناس من يخاصم فى توحيد الله وإقراره بالألوهية بغير علم منه بما يخاصم به ، ولا برهان معه على ما يقول ، ولا وحى من الله أتاه ينير عن حجته ، بل يقول ما يقول من الجهل ظنا منه وتخرصا .

وخلاصة ذلك — إنه يجادل بلا عقل صحيح ، ولا نقل صريح ، بل يجادل اتباعا للرأى والهوى .

( ثانى عطفه ) تقول العرب : جاءنى فلان ثانى عطفه إذا جاء متبخترا متكبرا فالمراد - ومن الناس من يجادل وهو لاو عنقه مُعْرِضا عما يُدْعى إليه من الحق مستكبرا عن قبوله .

ونحو الآية قول لقمان لابنه : « وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ » .

( ليضل عن سبيل الله ) أى ليصد المؤمنين بالله عن دينهم الذى هداهم الله إليه ويستنزلهم عنه .

وبعد أن ذكر فعله وثمرته ذكر ما أعد له عليه فى الدنيا والآخرة فقال :

( له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ) أى له فى الدنيا إهانة وذل كفاء استكباره عن آيات الله كما حدث من القتل والأسر بأيدى المؤمنين يوم بدر ، وسيصلى فى الآخرة عذاب النار ويحرق بلهيبها .

ثم بين سبحانه سبب هذا الخزى المعجل والعذاب المؤجل فقال :

( ذلك بما قدمت يداك ) أى ويقال له حينئذ : إن هذه النار التى تصطلى بلهيبها اليوم جزاء ما اجترحت يداك فى الدنيا من الآثام ، واكتسبته من الذنوب والمعاصى .

( وأن الله ليس بظلام للعبيد ) أى وقد فعلنا ذلك ، لأن الله لايظلم عباده فيعاقب بعض عبيده على جرم ويعفو عن مثله عن آخر غيره .

وقصارى ذلك — إنهم استحقوا هذا العذاب لما اجترحوه من الآثام والذنوب والله لايظلم أحدا بغير جرم قد فعله ، ومآل ذلك توبيخهم وتبكيتهم بأنهم هم سبب هذا العذاب .

---

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١) يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَالاَ يَضُرُّهُ وَمَا لاَيَنْفَعُهُ ذَلِكَ

هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (١٣) .

## شرح المفردات

على حرف : أى على طرف ، خير : أى سعة فى المال وكثرة فى الولد ، فتنة : أى بلاء ومحنة فى نفسه أو أهله أو ماله ، على وجهه : أى جهته و يراد بذلك أنه ارتد ورجع إلى الكفر ، خسر الدنيا والآخرة : أى ضيعهما إذ فاته فيهما مايسره ، يدعو الأولى يراد بها يعبد ، ويدعو الثانية : أى يقول ، والمولى : الناصر ، والعشير : الصاحب والمعاشر .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال الضالين المقلدين الذين يجادلون فى توحيد الله بلا بينة ولادليل وحال المضلين الذين يجادلون بلا سلطان من عقل ولا برهان صحيح من نقل ، ثم سوء مآلهما فى الدنيا والآخرة وأن لهما فى الدنيا خزيا وفى الآخرة عذابا فى النار تحترق منه أجسامهما ـ أعقب بذكر قوم مضطربى الإيمان مذبذبين فى دينهم لاثبات لهم فى عقيدتهم ولا استقرار لهم فى آرائهم ، إن أصابوا خيرا فرحوا به وركنوا إليه ، وإن نالهم بلاء وشدة فى أنفسهم أو أهليهم أو أموالهم ارتدوا كفارا ، فلحقهم الخسار والدمار فى دينهم ودنياهم ، وذلك هو الخسران الذى لاخسران بعده .

وهم فى ذلك الحين يدعون الأصنام والأوثان لتكشف عنهم ضرهم وتدفع عنهم ما نزل بهم من البلاء وقد ضلوا فى ذلك ضلالا بعيدا ، فإن من يدعونه و يعبدونه أقرب إلى الضر منه إلى النفع لأنه سيلقيهم فى النار و بئس القرار .

روى عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت فى أعراب كانوا يقدمون على النبى صلى الله عليه وسلم مهاجرين من باديتهم ، فكان أحدهم إذا صح جسمه ونُتِجت

فرسه مهرا حسنا أو ولدت امرأته غلاما وكثر ماله وماشيته ـ رضى به واطمأن إليه ، و إن أصابه وجع أو ولدت امرأته جارية أو أجْهَضت رماكه ( خيله ) أو ذهب ماله أو تأخرت عنه الصدقة أتاه الشيطان وقال له : ما جاءتك هذه الشرور إلا بسبب هذا الدين فينقلب عن دينه .

## الإيضاح

( ومن الناس من يعبد الله على حرف ) أى على طرف من الدين لافى وسطه وقلبه ، فهو فى قلق واضطراب فى دينه لافى سكون وطمأنينة ، فمثله مثل الذى يكون على طرف من العسكر إن أحسّ بغنيمة قرّ وسكن، و إن كانت هزيمة فرّ وهام على وجهه ، وهذا ما أشار إليه بقوله :

( فإن أصابه خير اطمأن به و إن أصابته فتنة انقلب على وجهه ) أى فإن أصابه رخاء وسعة فى العيش سكن واستبشر بهذا الخير والدين فعبد الله ، و إن أصابه شر و بلاء فى جسمه أو ضيق فى معيشته ارتد ورجع إلى الكفر .

والثبات فى الدين إنما يكون إذا كان الغرض منه إصابة الحق وطاعة الرب والخوف من عقابه ، أما إذا كان المقصد منه الخير المعجل فإنه يظهر فى السراء ويختفى لدى الضراء ، وهذا هو النفاق بعينه كما يرشد إلى ذلك قوله فى المنافقين : « مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاَءِ وَلاَ إِلَى هَؤُلاَءِ » وقوله : « فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ » .

وخلاصة ذلك — إن من الناس من ليس له ثبات فى أمر دينه ، بل هو مُرْجَحِنٌّ مضطرب مذبذب يعبد الله على وجه التجربة انتظارا للنعمة ، فإن أصابه خير بقى مؤمنا ، و إن أصابه شر من سقم وضياع مال وفقد ولد ترك دينه وارتد كافرا.

ثم بين سوء عاقبة عمله فقال :

( خسر الدنيا والآخرة ) أى ضيع نفعهما وزالت عنه فائدتهما ، فإنه خسر فى الدنيا العز والكرامة و إصابة الغنيمة ، وخسر فى الآخرة الثواب الدائم، بل حل به العقاب اللازب .

( ذلك هو الخسران المبين ) أى وذلك هو الخسران الذى لاخسران مثله لمن تدبر فيه وتفكر .

ثم أكد عظم ذلك الخسران بقوله :

(يدعو من دون الله ما لايضره وما لاينفعه) أى يدعو من دون الله آلهة لاتضره إن لم يعبدها فى الدنيا ، ولا منفعة له فى الآخرة إن عبدها .

( ذلك هو الضلال البعيد ) أى ذلك الارتداد وعبادة تلك الآلهة دون الله هو السير على غير استقامة والذهاب على غير هدى ، فما مثله إلا مثل من أبعد فى التيه ضالا و بعدت مسافة ضلاله فلم يهتد إلى الصراط السوى ولم ينل ما يبتغى و بلغت به الحيرة كل مبلغ .

ثم بين مآل دعائه وعبادته غير الله فقال :

( يدعو لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير ) أى يعبد الكافر من ضره أقرب تحققا من نفعه يوم القيامة فيقول برفع صوت وصراخ حين يرى تضرره بذلك المعبود ودخوله النار بسببه ولا يرى أثرا مما كان يتوقع من نفعه : لبئس هذا المعبود ناصرا ، ولبئس مخالطا ومعاشرا .

وخلاصة ذلك — أىّ عشير هذا وأى مصاحب كان لاينفع مولاه ولا ينصر من يعاشره ؟ والله لبئس العشير ولبئس الصاحب هو .

---

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤) .

## المعنى الجملى

لما ذكر فى الآية السالفة حال عباده المنافقين وحال معبوديهم ـ عطف على ذلك بذكر حال المؤمنين الذين آمنوا بقلوبهم ، وصدّقوا إيمانهم بأفعالهم ، وعملوا الصالحات وتركوا المنكرات .

## الإيضاح

( إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار ) أى إن الله سبحانه يتفضل على المؤمنين الذين عملوا صالح الأعمال ويكافئهم لقاء إحسانهم بدخول الجنات التى تجرى من تحت أشجارها الأنهار جزاء وفاقا على ما قاموا به من جليل الأعمال ، وما زكوا به أنفسهم من جميل الخصال .

ولما بين سبحانه حال الفريقين ذكر أنه قادر على أن يفعل بهما ما يشاء فقال : ( إن الله يفعل ما يريد ) من إكرام من يطيعه وإهانة من يعصيه ، لا رادّ لحكمه ، ولا مانع لقضائه ، فهو يعطى المتقين ضروبا من الفضل والإحسان زيادة على أجورهم كما قال : « فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ » ويدخل الكافرين نارا وقودها الناس والحجارة لما دنسوا به أنفسهم من أنواع الرجس والفسوق .

---

مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (١٥) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ (١٦) .

## شرح المفردات

بسبب : أى بحبل ، إلى السماء : أى إلى سقف بيته ، ليقطع : أى ليختنق ، فليتظر : أى فليقدر فى نفسه النظر ، كيده : أى فعله ، ما يغيظ : أى غيظه .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال المجادل بالباطل وخذلانه فى الدنيا لأنه لايدلى بحجة من العقل ولا ببرهان من الوحى ، ثم بيّن مايئول إليه أمره من النكال فى الدنيا والخزى فى الآخرة ، ثم ذكر مشايعيه وعمم خسارهم فى الدارين ، وأردف ذلك بذكر حال المؤمنين وما يلقونه من السعادة والنعيم فى الدار الآخرة ـ قفى على ذلك بذكر المجادل عنهم وعن دين الله بالتى هى أحسن ، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم وبالغ فى إثبات نصره بما لامزيد عليه ، ثم ذكر شأن كتابه وأنه آيات واضحات ترشد إلى سواء السبيل.

## الإيضاح

( من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ ) أى من كان يحسب أن الله لن ينصر محمدا صلى الله عليه وسلم فى الدنيا والآخرة فليمدد بحبل إلى سماء بيته ثم ليختنق به ثم ليصور فى نفسه النظر ، هل يذهبن ذلك الكيد الذى كاده والفعل الذى فعله ما يغيظه من النصرة ـ كلاّ .

وخلاصة المعنى — من كان يظن أن الله ليس بناصر محمدا ولا كتابه ولا دينه فليذهب وليقتل نفسه إن كان ذلك غائظه ، فإن الله ناصره لامحالة كما قال : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ » وسيعلى فى الدنيا كلمته ويظهر دينه ، ويرفع فى الآخرة درجته ويدخل من صدقه جنات تجرى من تحتها الأنهار وينتقم ممن كذبه ويذيقه عذاب الحريق ، فمن كان من أعاديه يغيظه ذلك فليبالغ فى كيده إلى أقصى مجهوده فقصارى أمره خيبة مسعاه ودوام غيظه دون أن يصل إلى غاية أو يبلغ أمنية .

وتلخيص هـذا — أيها الكاره لمحمد الذى أرسل لإنقاذك ، إن نعم الله على

عباده كثيرة ولا سيما بعثة الأنبياء ، فإذا كرهت ما أنعم الله به عليك ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم فكأنك تختنق ، لأنك تكره النعم لنفسك فتستقبح خنقها من حيث لاتشعر .

(وكذلك أنزلناه آيات بينات) أى وكما بينت لكم حججى على من جحد قدرتى على إحياء من مات من الخلق بعد فنائه وأوضحتها غاية الإيضاح ـ أنزلنا القرآن كله آيات واضحات الدلالة على معانيها .

وخلاصة ذلك — إن القرآن كله كامل البيان فى جميع أبوابه وفصوله لافى أمر البعث وحده .

( وأن الله يهدى من يريد ) أى وكذلك أنزله ليوفق به لسبيل الحق من أراد هدايته و إرشاده إلى سبل السلام .

---

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧)

## شرح المفردات

الذين هادوا : هم اليهود ، والصابئين : قوم يعبدون الملائكة ويصلون إلى القبلة ويقرءون الزبور ، وفى كتاب الملل والنحل للشهرستانى أن الصابئة كانوا على عهد إبراهيم عليه السلام ، ويقال لمقابليهم الحنفاء ، وعمدة مذهبهم تعظيم النجوم ثوابتها وسياراتها ، والمجوس ـ على ماقاله قتادة ـ قوم يعبدون الشمس والقمر والنيران، والذين أشركوا : هم عبّاد الأوثان ، فالأديان ستة : خمسة للشيطان ، وواحد للرحمن ، يفصل : أى يقضى بإظهار الحق من المبطل ، شهيد : أى عالم بكل الأشياء ومراقب لها .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر فى الآية السالفة أنه سبحانه يهدى من يريد ـ أتبعه ببيان من يهديه ومن لايهديه .

## الإيضاح

( إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ، إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شىء شهيد ) أى إن الله يقضى بين هذه الفرق و يظهر المحق من المبطل و يجازى كلاّ بما يفعل و يضعه فى الموضع اللائق به ، إذ ليس شىء من أحوالهم بغائب عنه ، بل هو عليم بأقوالهم مراقب لأفعالهم .

وخلاصة ذلك — إنه تعالى يحكم بالعدل فيدخل من آمن به الجنة ، و يلقى من كفر به فى جهنم ، و بئس القرار ، وهو الشهيد على أعمالهم ، الحفيظ لأفعالهم ، العليم بسرائرهم ، وما تكنّه ضمائرهم .

---

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ، وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَالَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ،إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨)

## شرح المفردات

ألم تر : أى ألم تعلم ، والسجود : لغة التطامن والتذلل ، ثم أطلق على التذلل لله وعبادته ، وهوضربان : سجود بالاختيار، وهوخاص بالإنسان و به يستحق الثواب. وسجود بالتسخير والانقياد لإرادته سبحانه وهو دال على الذلة والافتقار إلى عظمته جلّت قدرته ، من فى السموات : هم الملائكة ، ومن فى الأرض : هم الإنس والجن ، وحقّ : أى ثبت وتقرر .

## المعنى الجملى

بعد أن أبان فيما سلف أنه تعالى يقضى بين أرباب الفرق السالفة يوم القيامة وهو شهيد على أقوالهم وأفعالهم ـ أردف هذا ببيان أنه ما كان ينبغى لهم أن يختلفوا، ألا يرون أن جميع العوالم العلوية والسفلية كبيرها وصغيرها من شمسها وقمرها ونجومها وجبالها وحيوانها ونباتها ـ خاضعة لجبروته مسخرة لقدرته، وقد كان فى هذا مقنع لهم لو أرادوا ـ ولكن من يهنه الله ويكتب عليه الشقاء فلا يستطيع أحد أن يسعده، فالله وحده هو القدير على الإشقاء والإسعاد.

## الإيضاح

(ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدوابّ وكثير من الناس) أى ألم تعلم أيها المخاطب بهذا أن هذه الخلائق مسخرة لقدرة بارئها، وجبروت منشئها، منقادة لإرادته طوعا أو كرها فهى مفتقرة فى وجودها وبقائها إليه فهو الذى أنشأها وربّبها وأكمل وجودها على النحو الذى أراده والحكمة التى قدرها لها فى البقاء.

وأفرد الشمس وما بعدها بالذكر لأنها قد عبدت من دون الله، فعبدت الشمس حِمْير، والقمر كنانة، والشِّعْرى لخم، والثريّا طىء، والمصريون عبدوا العجل (أبيس) وعبدت العُزّى ـ شجرة ـ غطفان.

(وكثير حق عليه العذاب) أى وكثير منهم لا يسجدون فاستحقوا بذلك العذاب.

(ومن يهن الله فما له من مكرم) أى ومن يهنه الله من خلقه فيكتب له الشقاء لسوء استعداده فما له من مكرم يسعده، لأن الأمور كلها بيد الله يوفق من يشاء لطاعته، ويخذل من يشاء لتدسيته نفسه، واجتراحه للسيئات وارتكابه الآثام والمعاصى.

( إن الله يفعل ما يشاء ) أى إن الله يفعل فى خلقه ما يشاء من إهانة من أراد إهانته ، وإكرام من أراد إكرامه فهو لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

---

هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ (٢٤) .

## شرح المفردات

خصمان : واحدهما خصم ، وهو من له رأى غير رأيك فى موضوع ما وكل منهما يحاج صاحبه فيه ، قطعت لهم : أى قدرت ، والحميم : الماء الذى بلغت حرارته أقصى الغاية ، يصهر به : أى يذاب ، ومقامع : واحدها مقمعة ، وهى السوط ، والغم : الحزن الشديد ، والطيب من القول : ما يقع فى محاورة أهل الجنة بعضهم بعضا ، وصراط الحميد : أى الطريق المحمود فى آداب المعاشرة والاجتماع .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر أرباب الفرق الست فيما سلف ، وذكر أن الله يفصل بينهم يوم القيامة وهو العليم بأحوالهم وأعمالهم وأقوالهم ـ قفى على ذلك بذكر طرفى الخصومة

وتعيين موضع الخصومة و بيان مآل كل من الفريقين من الإهانة والكرامة ، والعذاب والنعيم .

أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال : تخاصم المؤمنون واليهود فقالت اليهود : نحن أولى بالله تعالى وأقدم منكم كتابا ونبينا قبل نبيكم ، وقال المؤمنون : نحن أحق بالله تعالى . آمنا بمحمد صلى الله عليه وسلم وآمنا بنبيكم و بما أنزل الله تعالى من كتاب ، وأنتم تعرفون كتابنا ونبينا ثم تركتموه وكفرتم به حسدا فنزلت الآية .

ويرى جماعة من الصحابة والتابعين وهم أعرف من غيرهم بأسباب النزول أن المراد بالخصمين هم الذين برزوا يوم بدر ، فمن المؤمنين حمزة وعلى وعبيدة ، ومن الكافرين عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة ، وكان أبو ذر يقسم إن هذه الآيات نزلت فى هؤلاء المتبارزين كما ثبت عنه فى الصحيحين وغيرهما ، وروى البخارى وغيره عن على أنه قال : فينا نزلت هذه الآية وأنا أول من يجثو فى الخصومة على ركبتيه بين يدى الله يوم القيامة .

## الإيضاح

( هذان خصمان اختصموا فى ربهم ) أى إن أهل الأديان الستة التى سبق ذكرها فريقان : فريق المؤمنين . وفريق الكافرين أرباب الديانات الخمس المتقدمة جادلوا فى دين الله ، فكل فريق يعتقد أن ما هو عليه هو الحق وأن ما عليه خصمه هو الباطل ، و بنى على ذلك كل أقواله وأفعاله ، وهذا كاف فى تحقيق الخصومة وإن لم يحصل بينهما تحاور بالفعل .

ثم ذكر مآل كل فريق وما يلقاه من الجزاء بعد أن يفصل الله بينهما، وذكر من جزاء فريق الكافرين أمورا ثلاثة :

(١) ( فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار ) أى فالكافرون أعدت لهم نيران تحيط بهم كأنها ثياب قدرت على قدر أجسامهم .

ولا يخفى مافى هذا الأسلوب من التهكم بهم واحتقار شأنهم .

والتعبير بثياب للإشارة إلى تراكم طبقات النار المحيطة بهم وكون بعضها فوق بعض .

وشبيه بالآية قوله : « لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ » .

(٢) ( يصبّ من فوق رءوسهم الحميم . يصهر به ما فى بطونهم والجلود ) أى يصب من فوق رءوسهم الماء الحار الذى يذيب أمعاءهم وأحشاءهم كما يحرق جلودهم ، فله أثر فى الباطن والظاهر .

أخرج عبد بن حميد والترمذى فى جماعة عن أبى هريرة أنه تلا هذه الآية فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الحميم ليصب على رءوسهم فينفذ من الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه فيسلت مافى جوفه حتى يبلغ قدميه وهو الصهر ثم يعاد كما كان » .

(٣) ( ولهم مقامع من حديد ) أى ولتعذيبهم سياط من حديد تضرب بها رءوسهم ووجوههم يقمعون بها ويردون ردا عنيفا إذا أرادوا الهرب من النار ، وإلى هذا أشار بقوله :

( كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق ) أى إنهم كلما حاولوا الهرب من جهنم والخروج منها حين يلحقهم عظيم عذابها أعيدوا فيها وضربوا بسياط من حديد وقيل لهم : ذوقوا عذاب هذه النار التى تحرق الأمعاء والأحشاء .

وبعد أن بين سوء حال الكافرين أردف ذلك ببيان ما يناله المؤمنون من الكرامة فى المسكن والحلية والملبس وحسن القول والعمل فقال :

(١) ( إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار ) أى إن الله يدخل من آمن بالله ورسله وعمل صالح الأعمال التى تزكى

نفوسهم وتقربهم إلى ربهم – جنات تجرى من تحت قصورها وأشجارها الوارفة الظلال : الأنهار الواسعة يتمتعون بها كما شاءوا .

(٢) ( يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ) أى يلبسون فى أيديهم حلية من ذهب ، وفى رءوسهم تيجانا من لؤلؤ .

(٣) ( ولباسهم فيها حرير ) أى ويلبسون الحرير الذى حرم عليهم لبسه فى الدنيا ، وكانت هذه الحلية والملابس فيها عنوان العزة والكرامة فأوتوها فى الآخرة إجلالا وتعظيما لهم .

(٤) ( وهدوا إلى الطيب من القول ) أى وأرشدوا إلى القول الطيب وهو قولهم حين دخول الجنة: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ » .

(٥) ( وهدوا إلى صراط الحميد ) أى وأرشدوا إلى الطريق الحميد الذى يجعل أقوالهم وأفعالهم مرضية عند ربهم محمودة لدى معاشريهم وإخوانهم مما يجمل فى المعاشرة والاجتماع .

---

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥) .

## شرح المفردات

المراد بالمسجد الحرام : مكة ، وعبر به عنها لأنه المقصود المهم منها ، العاكف : المقيم ، والبادى : الطارئ القادم عليها ، والإلحاد : العدول عن الاستقامة ، بظلم : أى بغير حق .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر مآل كل فريق من الكفار والمؤمنين ـ أردف ذلك بعظم حرمة البيت وأنكر على الكفار صدهم المؤمنين عن شهوده وقضاء مناسكهم فيه ودعواهم أنهم أولياؤه .

روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الآية نزلت فى أبى سفيان بن حرب وأصحابه حين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه عام الحديبية عن المسجد الحرام وقد كره عليه السلام أن يقاتلهم وكان محرما بعمرة ثم صالحوه على أن يعود فى العام المقبل .

## الإيضاح

( إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ) أى إن الذين جحدوا توحيد الله وكذبوا رسوله وأنكروا ما جاءهم به من عند ربهم ، ويمنعون الناس أن يدخلوا فى دين الله ، ويصدون عن الدخول فى المسجد الحرام الذى جعله للذين آمنوا به كافة ، سواء منهم المقيم فيه والطارئ عليه النازع إليه من غربته ـ نذيقهم عذابا مؤلما موجعا لهم ، ويدل على هذا قوله :

( ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ) أى ومن يرد أن يميل إلى الظلم فى المسجد الحرام فيعصى الله ويخالف أوامره ـ نذقه يوم القيامة العذاب الموجع له .

وخلاصة ذلك — إنه سبحانه توعد الكفار الذين يصدون عن الدين ويمنعون الناس عن اعتناقه ويحولون بين الناس ودخول مكة ـ بالعذاب المؤلم لهم يوم القيامة كما توعد بذلك من يرتكب الذنوب والآثام فى المسجد الحرام .

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩) .

## شرح المفردات

يقال بوأه منزلا : أى أنزله فيه ؛ وأصل البيت مأوى الإنسان بالليل ثم أطلق على كل مأوى متخذ من حجر أو مدر أو صوف أو وبر والمراد به هنا الكعبة وقد بنيت عدة مرات فى أوقات مختلفة ، وأذن : أى ناد ، بالحج : أى بالدعوة إليه ، رجالا : أى مشاة ، والضامر : البعير الهزيل الذى أتعبته كثرة الأسفار ، ويطلق على الذكر والأنثى ، والفج : الطريق ، والعميق : البعيد ، ويذكروا اسم الله : أى يحمدوه ويشكروه ، والأيام المعلومات : هى أيام النحر وهى ثلاثة أيام يوم العيد ويومان بعده ، والمراد ببهيمة الأنعام : الإبل والبقر والضأن ، والبائس : الذى أصابه البؤس والشدة ، وليقضوا : أى ليزيلوا ، والتفث : الوسخ ، ويراد به هنا قص الشعور وتقليم الأظفار ، والنذور : ما ينذر من أعمال البر فى الحج ، والعتيق : القديم لأنه أول بيت وضع للناس .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن كثيرا من مشركى قريش صدوا عن دين الله وعن دخول المسجد الحرام ـ أردف ذلك بتأنيبهم وتوبيخهم على ما يفعلون ، فبين أنه ما كان

ينبغى لهم ذلك ، فإن أباهم إبراهيم الذى يفخرون به وينتسبون إليه هو الذى ابتناه وجعله مباءة للناس وأمر بتطهيره من الشرك للطائفين والمصلين،وأن ينادى فى الناس ليأتوه من كل فج عميق ، لما لهم فى ذلك من منافع دينية ودنيوية ، ويذكروا اسم الله فى أيام النحر على ما آتاهم من بهيمة الأنعام ، فاذكروه على ذلك وكلوا منها وأطعموا الفقراء والبائسين ، فإذا قضيتم مناسككم فأزيلوا ما عليكم من الوسخ والقذر ، فقلموا أظفاركم وأزيلوا شعوركم ثم وفوا ماعليكم من نذور كنتم قد نذرتموها من أعمال البر والخير ، ثم طوفوا طواف الزيارة بالبيت العتيق ، وبذلك تكونون قد أتممتم مناسك الحج .

## الإيضاح

( وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ) أى واذكر أيها الرسول لهؤلاء المشركين الذين يصدون عن سبيل الله وعن دخول المسجد الحرام ـ الوقت الذى جعلنا فيه هذا البيت مباءة للناس يرجعون إليه للعبادة ، والمراد بذكر الوقت ذكر ما وقع فيه من حوادث جسام ليتذكروا فيقلعوا عن غيهم ويرعووا إلى رشدهم ويستبين لهم عظيم ما ارتكبوا من خطإ ، وكبير ما اجترحوا من جُرْم ، بصدهم الناس عن بيت بناه أبوهم وجعله الله قبلة للناس فى الصلاة ومكانا للطواف حين أداء شعيرة الحج .

( أن لاتشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود ) أى وقلنا له : لاتشرك بى شيئا من خلقى فى العبادة ، وطهر بيتى من الأوثان والأقذار لمن يطوف به ويصلى عنده .

( وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ) أى وقلنا له : ناد الناس داعيا لهم إلى الحج وزيارة هذا البيت الذى أُمِرْتَ ببنائه ـ يأتوك مشاة على أرجلهم وركبانا على ضوامر من الإبل من كل طريق بعيد .

ثم بين السبب فى هذه الزيارة فقال :

(ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الأنعام) أى يأتونك ليحضروا منافع لهم فى الدنيا من تجارة رائجة وسلع نافقة ، ومنافع فى الآخرة بما يعملون من عمل يرضى ربهم ، وبما يحمدونه على النعم التى تترى عليهم ومارزقهم من الهدايا والبدن التى أهدوها أيام النحر الثلاثة يوم العيد ويومان بعده .

( فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ) أى فاذكروا اسم الله على ضحاياكم وكلوا من لحومها وأطعموا ذوى الحاجة الفقراء الذين مسهم الضر والبؤس .

(ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق ) أى ثم ليزيلوا ما علق بهم من الأوساخ فيحلقوا الشعر ويقلموا الأظفار ويأخذوا من الشوارب والعارضين ، وليوفوا ما نذروه من أعمال البر ، وليطوفوا طواف الوداع بالبيت العتيق إذ هو أقدم بيت للعبادة فى حياة البشر .

---

ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣٣) .

## شرح المفردات

ذلك : أى الأمر هكذا ، ويقع للفصل بين كلامين أو بين وجهى كلام واحد كقوله تعالى : « هٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ » ، والحرمات : التكاليف الدينية من مناسك الحج وغيرها ، وتعظيمها العلم بوجوبها والعمل على موجب ذلك ،

والزور : الكذب ، وحنفاء واحدهم حنيف: وهو المائل عن كل دين زائغ إلى الدين الحق ، وخر : سقط ، والخطف : الاختلاس بسرعة ، تهوى : أى تسقط ، سحيق : أى بعيد ، والشعائر واحدها شعيرة: وهى العلامة ؛ والمراد بها البدن الهدايا ، وتعظيمها: أن تختار حسانا سمانا غالية الأثمان ، والأجل المسمى : هو أن تنحر وتذبح ، ومحلها : مكان نحرها ، والمراد بالبيت العتيق : مايليه و يقرب منه وهو الحرم .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه أمر إبراهيم ببناء البيت وتطهيره من عبادة الأوثان والأصنام ، وأن ينادى الناس ليحجوا هذا البيت الحرام مشاة وركبانا من كل فج عميق، لما لهم فى ذلك من منافع دنيوية ودينية ، وأن ينحروا البدن الهدايا ذاكرين اسم الله عليها فى أيام معلومات ، وأن يأكلوا منها و يطعموا البائس الفقير ، وأن يقصوا شعورهم و يقلموا أظفارهم ثم ليطوّفوا بهذا البيت العتيق ـ قفى على ذلك ببيان أن اجتناب المحرمات حال الإحرام خير عند الله مثوبة وأعظم أجرا ، وأن ذبح الأنعام وأكلها حلال إلا ماحرم عليكم ، وأنه يجب اجتناب عبادة الأوثان وترك شهادة الزور ، وأن من يشرك بالله فقد هلك ، وأن تعظيم شعائر الله علامة على أن القلوب مليئة بالتقوى والخوف من الله ، وأن فى هذه الهدايا منافع من الدَّر والصوف والنسل إلى أجل مسمى وهو أن تنحر ثم تؤكل و يتصدق بلحومها .

## الإيضاح

( ذلك ، ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه ) أى هذا الذى أمر به من قضاء التفث والوفاء بالنذور والطواف بالبيت هو الغرض الواجب عليكم أيها الناس فى حجكم ـ ومن يجتنب ما أمر باجتنابه فى حال إحرامه تعظيما منه لحدود الله أن يواقعها ، وحُرمه أن يستحلها ـ فهو خير له عند ربه فى الآخرة ، بما يناله من رضاه وجزيل ثوابه .

وعن ابن زيد : الحرمات المشعر الحرام والمسجد الحرام والبلد الحرام .

( وأحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم ) أى وأحل لكم أيها الناس أن تأكلوا الأنعام إذا ذكيتموها ، فلم يحرم عليكم بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حاميا إلا مايتلى عليكم فى كتاب الله وهو الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع وما ذبح على النصب ، فإن كل ذلك رجس .

(فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور. حنفاء لله غير مشركين به ) أى فابتعدوا عن عبادة الأوثان وطاعة الشيطان فإن ذلك رجس ، واتقوا قول الكذب والفرية على الله كقولكم فى الآلهة : «مَانَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى» وقولكم : الملائكة بنات الله ، ونحو هذا من القول فإن ذلك كذب وزور وشرك بالله ، وقوله حنفاء لله غير مشركين به : أى تمسكوا بهذه الأمور على وجه العبادة لله وحده دون إشراك أحد سواه معه .

( ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ) أى إن من أشرك مع الله سواه فقد أهلك نفسه هلاكا ليس وراءه هلاك ، وكانت حاله أشبه بحال من سقط من السماء فتخطفته الطير ففرقت أجزاءه فى حواصلها إرْبا إرْبا ، أو عصفت به الريح فهوت به فى المهاوى البعيدة التى لا رجعة له منها .

( ذلك ) أى امتثلوا ذلك واحفظوه ولا تتهاونوا فى الحرص عليه والسير على نهجه .

( ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب ) أى ومن يعظم البدن التى يهديها للحرم بأن يختارها عظيمة الأجسام سمينة غير هزيلة غالية الثمن ويترك المكاس حين شرائها ـ فقد اتقى الله حقا ، فإن تعظيمها باب من أبواب التقوى بل هو من أعظم أبوابها .

روى أن النبى صلى الله عليه وسلم أهدى مائة بدنة فيها جمل لأبى جهل فى أذنه بُرَة ـ حلق ـ من ذهب ، وأن عمر أهدى نجيبة ـ ناقة ـ طلبت منه بثلثمائة دينار، وقد سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيعها و يشترى بثمنها بُهْما فنهاه عن ذلك وقال بل أهدها ، وكان ابن عمر رضى الله عنهما يسوق البدن مُجَلَّة بالقباطى ـ ثياب مصرية غالية الثمن ـ فيتصدق بلحومها و بجلالها .

( لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ) أى لكم فى تلك الهدايا منافع كركوبها حين الحاجة وشرب ألبانها حين الضرورة إلى أن تنحر و يؤكل منها و يتصدق بلحومها .

( ثم محلها إلى البيت العتيق ) أى ثم مكان حل نحرها عند البيت العتيق أى عند الحرم جميعه ، إذ الحرم كله فى حكم البيت الحرام .

أخرج البخارى فى تاريخه والترمذى وحسنه والحاكم وصححه وابن جرير والطبرى وغيرهم عن ابن الزبير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنما سمى الله البيت العتيق ، لأنه أعتقه من الجبابرة فلم يظهر عليه جبار قط » و إلى هذا ذهب قتادة وقد قصده تبّع ليهدمه . فأصابه الفالج فأشير عليه أن يكف عنه ، وقيل له إن ربا يمنعه ، فتركه وكساه ، وهو أول من كساه ، وقصده أبرهة فأصابه ما أصابه .

---

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَ بَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٥) .

## شرح المفردات

المنسك ( بكسر السين وفتحها ) والنسك فى الأصل : العبادة مطلقا ، وشاع استعماله فى أعمال الحج والمراد به هنا الذبح و إراقة الدماء على وجه التقرب إليه

تعالى ، أسلموا : أى انقادوا له ، المخبتين : أى المتواضعين الخاشعين ، من أخبت الرجل : إذا سار فى الخَبْت وهو المطمئن من الأرض ، وجلت : أى خافت .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن تعظيم الشعائر من أعظم دعائم التقوى ، وأن محل نحرها هو البيت العتيق — قفى على ذلك ببيان أن الذبح وإراقة الدماء على وجه التقرب إليه تعالى ليس بخاص بهذه الأمة ، بل لكل أمة مناسك وذبائح تذكر بالله حين ذبحها والشكر له على توفيقه لإقامة هذه الشعائر ، فالإله واحد والتكاليف تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والمصالح ، وبعدئذ أمر رسوله أن يبشر المتواضعين الخاشعين لله الذين يقيمون الصلاة وينفقون مما رزقناهم بجنات تجرى من تحتها الأنهار .

## الإيضاح

( ولكل أمة جعلنا منسكا ) أى جعلنا لأهل كل دين من الأديان التى سلفت من قبلكم ذبحا يذبحونه ودما يريقونه على وجه التقرب لله ، وليس ذلك خاصا بقوم دون آخرين .

ثم بين السبب فى ذلك فقال :

( ليذكروا اسم الله على مارزقهم من بهيمة الأنعام ) أى وإنما شرعنا لهم ذلك كى يذكروا الله حين ذبحها ، ويشكروه على ما أنعم به عليهم ، إذ هو المقصود الأهم .

وفى الصحيحين عن أنس قال : « أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكبشين أملحين ( فيهما بياض يخالطه سواد ) أقرنين فسمى وكبر ووضع رجله على صفاحهما » وروى أحمد عن زيد بن أرقم قال : « قلت يا رسول الله ما هذه الأضاحى ؟ قال :

« سنة أبيكم إبراهيم » قالوا مالنا منها ؟ قال : « بكل شعرة حسنة » قالوا فالصوف ؟ قال : « بكل شعرة من الصوف حسنة » .

ثم أخبر سبحانه بتفرده بالألوهية وأنه لاشريك له فقال :

(فإلهكم إله واحد فله أسلموا) أى فإن معبودكم واحد و إن اختلفت العبادات على حسب الأزمنة والأمكنة ونسخ بعضها بعضا ، فما المقصد منها جميعا إلا عبادة الله وحده لاشريك له كما قال : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ » فأخلصوا له العمل واستسلموا لحكمه وانقادوا له فى جميع ما كلفكم به .

(و بشر المخبتين) أى و بشر أيها الرسول الخاضعين لله بالطاعة ، المذعنين له بالعبودية ، المنيبين إليه بالتوبة ، بما أعدّ لهم من جزيل ثوابه ، وجليل عطائه .

ثم بين سبحانه علاماتهم فقال :

(١) (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) أى إنهم إذا ذكر الله عرتهم رهبة من خشيته ، وخوف من عقابه .

(٢) (والصابرين على ما أصابهم) من النوائب والمحن فى طاعة الله .

(٣) (والمقيمى الصلاة) أى والمؤدين حقه تعالى فيما أوجبه عليهم من فريضة الصلاة فى الأوقات التى حددها لهم .

(٤) (ومما رزقناهم ينفقون) أى و ينفقون بعض ما آتاهم الله من طيب الرزق فى وجوه البر وعلى أهليهم وأقاربهم وعلى الخلق كافة ، ومن ذلك إهداء الهدايا التى يغالون فى أثمانها .

---

وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ

وَالْمُعْتَرَّ ، كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧) .

## شرح المفردات

البدن : واحدها بدنة، وهى الناقة أو البقرة التى تنحر بمكة ، وتطلق على الذكر والأنثى ، وشعائر الله : أعلام دينه التى شرعها لعباده ، صوافّ : أى قائمات قد صفت أيديهن وأرجلهن، واحدها صافة ، وجبت جنوبها : أى سقطت جنوبها على الأرض ويراد بذلك زهقت أرواحها وفقدت الحركة ، القانع : أى الراضى بما عنده وبما يعطى من غير مسألة ، قال لبيد :

فمنهم سعيد آخذ بنصيبه ومنهم شقى بالمعيشة قانع

والمعترّ : أى المتعرض للسؤال ، المحسنين : أى المخلصين فى كل ما يأتون وما يذرون فى أمور دينهم .

## المعنى الجملى

بعد أن حث سبحانه على التقرب بالأنعام كلها ، وبين أن ذلك من تقوى القلوب ، خص من بينها الإبل لأنها أعظمها خلقا ، وأكثرها نفعا ، وأنفسها قيمة .

## الإيضاح

( والبدن جعلناها لكم من شعائر الله ) امتنّ سبحانه على عباده بأن خلق لهم البدن وجعلها من شعائره ، فتهدى إلى بيته الحرام ، بل جعلها أفضل ما يهدى إليه .

وإطلاق البدنة على البعير والبقرة هو قول معظم أئمة اللغة وهو مذهب أبى حنيفة وقول عطاء وسعيد بن المسيِّب من التابعين ، وروى عن بعض الصحابة فقد أثر عن ابن عمر رضى الله عنهما : لا تعلم البدن إلا من الإبل والبقر ، وتجزئ البدنة عن سبعة

لما رواه أبو داود عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة » .

(لكم فيها خير) أى لكم فيها نفع فى الدنيا كالركوب واللبن، وأجر فى الآخرة بنحرها والتصدق بها .

( فاذكروا اسم الله عليها صوافّ ) أى فاذكروا اسم الله على البدن حين نحركم إياها قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن، وقولوا: بسم الله والله أكبر، اللهم منك و إليك.

( فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعترّ ) أى فإذا سقطت وزهقت أرواحها ولم يبق لها حركة ، فكلوا منها وأطعموا القانع المستغنى بما تعطونه وهو فى بيته بلا مسألة ، والمعتر الذى يتعرض لكم و يأتى إليكم لتطعموه من لحمها .

وخلاصة ذلك — كلوا وأطعموا .

( كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون ) أى هكذا سخرنا البدن لكم مع عظم أجرامها وكمال قوتها ، فلا تستعصى عليكم ، بل تأتى إليكم منقادة فتعقلونها وتحبسونها صافة قوائمها ثم تطعنونها فى لبّاتها ، لتشكروا إنعامنا عليكم بالتقرب والإخلاص فى أعمالكم .

ولما حث سبحانه على التقرب بها مذكورا اسمه عليها ـ بيّن السبب فقال :

( لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ) أى لن ينال رضا الله اللحوم المتصدق بها ولا الدماء المُهَراقة بالنحر ، ولكن ترفع إليه الأعمال الصالحة والإخلاص فيها بإرادة وجهه تعالى فحسب .

والخلاصة — لن يُرْضِىَ المضحون ربهم إلا إذا أحسنوا النية وأخلصوا له فى أعمالهم ، فإذا لم يراعوا ذلك لم تغن عنهم التضحية والتقرب بها شيئا و إن كثر ذلك ، فقد جاء فى الصحيح : « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى ألوانكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » .

ثم كرر سبحانه التنبيه على عظم تسخيرها منبها على ما أوجب عليهم بقوله :

( كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم ) أى هكذا سخرها لكم لتشكروه على هدايته إياكم لمعالم دينه، ومناسك حجه ، فتقولوا: الله أكبر على ماهدانا ولله الحمد على ما أولانا .

ثم وعد من امتثل بقوله :

( وبشر المحسنين ) أى وبشر أيها الرسول الذين أطاعوا الله فأحسنوا فى طاعتهم إياه فى الدنيا ـ بجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .

---

إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ؛ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا ، وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِى الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَلِلهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١) .

## شرح المفردات

أذن : أى رخص ، الصوامع: واحدها صومعة، وهى معبد الرهبان فى الصحراء ـ الدير ـ والبيع : واحدها بيعة وهى معبد النصارى ، والصلوات : واحدها صلاة معرب صلوثا بالعبرية معبد اليهود ، ومساجد : واحدها مسجد ، وهو معبد المسلمين.

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه صدّ المشركين عن دين الله وعن المسجد الحرام ، ثم أردفه بذكر مناسك الحج و بين ما فيها من منافع فى الدين والدنيا ـ قفى على ذلك ببيان ما يزيل الصد عنه و يؤمن معه من التمكن من أداء تلك الفريضة على أتم الوجوه.

## الإيضاح

( إن الله يدافع عن الذين آمنوا ) أى إن الله يدفع عن عباده الذين توكلوا عليه وأنابوا إليه ـ شر الأشرار وكيد الفجار ، و يكلؤهم و ينصرهم على أعدائهم و يكتب لهم الفلج عليهم والظفر بهم كما قال : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا » .

ثم ذكر السبب فى وعيدهم بقوله :

( إن الله لا يحب كل خوان كفور ) أى و إنما دفعهم وقهرهم ، لأنهم خانوا أمانة الله وهى أوامره ونواهيه ، وكفروا أنعمه التى يسديها إليهم بكرة وعشيا وعبدوا غيره مما لا يضر ولا ينفع .

وفى هذا إيماء إلى أن المؤمنين هم أحباء الله .

( أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ) أى رخص للمؤمنين وأبيح لهم أن يقاتلوا المشركين لظلمهم إياهم ، فقد كانوا يؤذون أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أذى شديدا فيأتون إليه بين مضروب ومشجوج فى رأسه و يتظلمون إليه فيقول لهم صبرا صبرا ، فإنى لم أؤذن بالقتال حتى هاجر ، وأنزل الله هذه الآية ، وهى أول آية نزلت بالإذن بالقتال بعد ما نهى عنه فى نيف وسبعين آية كما رواه الحاكم فى المستدرك عن ابن عباس .

ثم وعدهم بالنصر ودفع أذى المشركين عنهم فقال :

( و إن الله على نصرهم لقدير ) أى و إن الله على نصر المؤمنين الذين يقاتلون فى سبيله لقادر ، وقد فعل فأعزهم ورفعهم وأهلك عدوهم وأذلهم بأيديهم .

وفى هذا الأسلوب مبالغة عظيمة زيادة فى توطين عزائم المؤمنين وتثبيتهم على الجهاد فى سبيله .

وبمعنى الآية قوله : « فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا » وقوله : « قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » وقوله : « أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ » .

وإنما شرع الجهاد بعد الهجرة إلى المدينة ، لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر من المؤمنين عددا حتى أخرجوا النبى صلى الله عليه وسلم من بين أظهرهم وهموا بقتله وشردوا أصحابه فذهبت طائفة منهم إلى الحبشة وذهب آخرون إلى المدينة فلما استقروا بالمدينة وأتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم واجتمعوا إليه وقاموا بنصره وصارت المدينة لهم دار إسلام ومعقلا يلجئون إليه ـ شرع الجهاد ونزلت الآية مرخصة فيه .

روى أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجه عن ابن عباس أنه قال : لما أخرج النبى صلى الله عليه وسلم من مكة قال أبو بكر : أخرجوا نبيهم إنا لله وإنا إليه راجعون . ليهلكن القوم . فأنزل الله : ( أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ) قال أبو بكر : فعرفت أنه سيكون قتال .

ثم وصف سبحانه هؤلاء المؤمنين بقوله :

( الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ) أى أولئك المظلومون هم الذين أخرجهم المشركون من مكة إلى المدينة وعذبوا بعضهم وسبوا بعضا آخر ، وما كان لهم من إساءة إليهم ولا ذنب جنوه إلا أنهم عبدوا الله وحده لاشريك له .

ونحو الآية قوله : « يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ » وقوله فى قصة أصحاب الأخدود « وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ » .

ولما كان المسلمون ينشدون حين بناء الخندق :

لا هُمَّ لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلنْ سكينة علينا وثبّت الأقدام إن لاقينا
إن الألى بغَوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا

كان رسول الله يوافقهم و يقول معهم آخر كل قافية ، فإذا قالوا : إذا أرادوا فتنة أبينا ـ يقول أبينا و يمدّ بها صوته .

ثم حرض المؤمنين على القتال و بين أنه أجرى العادة به فى الأمم الماضية لينتظم أمر الجماعات وتقوم الشرائع وتصان بيوت العبادة من الهدم فقال :

( ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع و بيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ) أى فليقاتل المؤمنون الكافرين ، فلولا القتال وتسليط المؤمنين على المشركين فى كل عصر وزمان لهدمت فى شريعة كل نبى معابد أمته ، فهدمت صوامع الرهبان و بيع النصارى وصلوات اليهود ومساجد المسلمين التى يذكرون فيها اسم الله كثيرا .

وفى هذا ترقّ وانتقال من الأقل إلى الأكثر حتى انتهى إلى المساجد وهى أكثر عُمَّارا وأكثر عُبَّادا وهم ذوو القصد الصحيح .

والخلاصة — إنه لولا ماشرعه الله للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء بعضهم ببعض و إقامة حدود الأديان لاستولى أهل الشرك على مواضع العبادة وهدموها ، وقد يكون المراد ـ لولا هذا الدفع لهدمت فى زمن موسى الكنائس وفى زمن عيسى الصوامع والبيع وفى زمن محمد صلى الله عليه وسلم المساجد .

( ولينصرنّ الله من ينصره ) أى وليعينن الله من يقاتل فى سبيله لتكون كلمته

العليا وتكون كلمة عدو دينه السفلى ، ولقد أنجز الله وعده وسلط المهاجرين والأنصار على صناديد قريش وأكاسرة العجم وقياصرة الروم وأورثهم أرضهم وديارهم .

ونحو الآية قوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ » .

( إن الله لقوى عزيز ) أى إن الله لقوى على نصر من جاهد فى سبيله من أهل طاعته ، منيع فى سلطانه لا يقهره قاهر ولا يغلبه غالب .

ونحو الآية قوله : « كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ؛ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ » وقوله : « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ . وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ » .

ثم وصف الله الذين أخرجوا من ديارهم بقوله :

( الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ) أى هؤلاء الذين أخرجوا من ديارهم هم الذين إن مكنا لهم فى البلاد فقهروا المشركين وغلبوهم عليها ـ أطاعوا الله فأقاموا الصلاة على النحو الذى طلبه ، وأعطوا زكاة أموالهم التى حباها الله لهم ودعوا الناس إلى توحيده ، والعمل بطاعته ، وأمروا بما حثت عليه الشريعة ، ونهوا عن الشرك واجتراح السيئات .

وخلاصة ذلك — إنهم هم الذين كملوا أنفسهم باستحضار المعبود والتوجه إليه فى الصلاة على قدر الطاقة ، وكانوا عونا لأممهم بإعانة فقرائهم وذوى الحاجة منهم ، وكملوا غيرهم فأفاضوا عليهم من علومهم وآدابهم ، ومنعوا المفاسد التى تعوق غيرهم عن الوصول إلى الرقى الخلقى والأدب السامى .

ثم وعد بإعلاء كلمته ونصر أوليائه فقال :

( ولله عاقبة الأمور ) أى ولله آخر الأمور ومصايرها فى الثواب عليها أو العقاب فى الدار الآخرة .

ونحو الآية قوله : « وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » .

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ (٤٥) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) .

## شرح المفردات

أمليت : أى أمهلت ، أخذتهم : أى أهلكتهم ، فكيف استفهام يراد به التعجب ، والنكير والإنكار على الشىء : أن تفعل فعلا به يزجر المنكر عليه على مافعل ، خاوية : ساقطة ، وعروشها : أى سقوفها ، معطلة : أى عطلت من منافعها ، مشيد : أى مبنى بالشيد ، وهو الجص ( الجير ) .

## المعنى الجملى

بعد أن بيّن سبحانه فيما سلف أن المشركين أخرجوا المؤمنين من ديارهم بغير حق ، وأنه أذن لهم فى مقاتلتهم وضمن لهم النصرة عليهم — أردف هذا بتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم على مايرى من قومه ، وتصبيره على أذاهم وتكذيبهم إياه ، فأبان له أن هذا التكذيب ليس بدعاً فى الأمم ، فكثير منها قد كذبت رسلها فحل بها من البوار مافيه عبرة لمن اعتبر وتذكر ، مما يشاهدونه رأى العين فى حلهم وترحالهم ، وفى غدوهم ورواحهم ، فلا تحزن على ما ترى واصبر فإن العاقبة للمتقين .

# الإيضاح

( وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبرهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير ) أى فإن يكذبك هؤلاء المشركون بالله على ما أتيتهم به من الحق وما تعدهم به من العذاب على كفرهم به ، فلست بأوحدىّ فى ذلك ، فتلك سنة إخوانهم من الأمم الخالية المكذبة لرسلها ، وذلك منهاج من قبلهم ، فلا يصدنك ذلك فإن العذاب من ورائهم ، ونصرى إياك وأتباعك عليهم آتٍ لامحالة ، كما أتى عذابى على أسلافهم من الأمم من قبلهم بعد الإمهال ، فقد أمهلت أهل الكفر من هذه الأمم فلم أعاجلهم بالنقمة والعذاب ثم أحللت بهم عقابى بعدئذ ، فانظر أيها الرسول كيف كان تغييرى ما كان بهم من نعمة ، وتنكرى لهم عما كنت عليه من الإحسان إليهم ـ ألم أبدلهم بالكثرة قلة وبالحياة موتا وهلاكا وبالعمارة خرابا ، فكذلك سأفعل بمكذبيك من قريش وإن أمليت لهم إلى آجالهم ، فإنى منجزك وعدى فيهم كما أنجزت غيرك من رسلى وعدى فى أممهم فأهلكتهم وأنجيت رسلى من بين أظهرهم .

ونحو الآية قوله : « وَكَذٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ » .

( فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ) أى وكثير من القرى أهلكناها إذ كان أهلها يعبدون غير من ينبغى أن يعبد ، ويعصون من لا ينبغى أن يعصى ، فخوت من مكانها وتساقطت على عروشها ، أى سقطت حيطانها فوق سقوفها ، وكم من بئر عطلناها بإفناء أهلها وهلاك وارديها ، فلا واردة لها ولا صادرة منها ، وكم من قصر شيد بالصخور والجص قد خلا من سكانه بما أذقنا أهله من عذابنا بسوء أفعالهم فبادوا وبقيت القصور المشيدة خالية منهم ، قال قتادة : شيدوه وحصنوه ، فهلكوا وتركوه .

ثم أكد لهم صدق وعيده وأحالهم على ما يشاهدون بكرة وعشيا فقال :

( أو لم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ) أى أفلم يسر هؤلاء المكذبون بآيات الله الجاحدون لقدرته ـ فى البلاد فينظروا إلى مصارع ضربائهم من مكذبى رسل الله الذين خلوا من قبلهم كعاد وثمود وقوم لوط وشعيب ، ويروا أوطانهم ومساكنهم ويسمعوا بآذانهم أخبارهم فيتفكروا ويعتبروا بها ويعلموا أمرها وأمر أهلها ، وكيف نابتهم النوائب وغالتهم غوائل الدهر ؟ فيكون فى ذلك معتبر لهم لو أرادوا فينيبوا إلى ربهم ويعقلوا حججه التى بثها فى الآفاق .

ثم أظهر اليأس من إيمانهم لأن القلوب قد عميت فلا تبصر الدلائل الكونية ولا البراهين العقلية فقال :

(فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ) أى إن أبصارهم وإن كانت سالمة لا عمى بها فقد أصابهم عمى القلوب ، والعمدة على الثانى لا على الأول ، فعمى الأبصار ليس بشىء إذا قيس إلى عمى القلوب والبصائر .

وفى هذا تهويل أيما تهويل ، وفى وصف القلوب بكونها فى الصدور فضل توكيد كما جاء فى قوله تعالى : « يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ » فقد تعورف أن مكان العمى هو البصر بأن تصاب الحدقة بما يطمس نورها ، فحين أريد إثبات ماهو خلاف الأصل بنسبته إلى القلوب ونفيه عن الأبصار احتيج إلى زيادة تعيين وفضل تعريف ليتقرر أن مكان العمى هو القلوب لا الأبصار ، وهذا على سنن قولهم : ليس المضاء للسيف ولكن للسان ( الذى بين فكّيك ) ـ فكأنهم قالوا ما نفينا المضاء عن السيف وأثبناه للسان فلتة وسهوا ، بل تعمدنا ذلك تعمدا .

---

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٤٧) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ

ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (٤٨) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٤٩) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١) .

## شرح المفردات

الإنذار : التخويف ، وأصل السعى: الإسراع فى المشى ، ثم استعمل فى الإصلاح والإفساد، يقال سعى فى أمر فلان: إذا أصلحه أو أفسده بسعيه فيه ، معاجزين : أى مسابقين المؤمنين ومعارضين لهم فكلما طلبوا إظهار الحق طلب هؤلاء إبطاله ، وأصله من قولهم : عاجزه فأعجزه ، إذا سابقه فسبقه .

## المعنى الجملى

لما ذكر سبحانه أن المشركين كذبوا رسوله وبالغوا فى تكذيبه وسلاه عن ذلك بأنك لست ببدع فى الرسل ، فكثير ممن قبلك منهم قد كذبوا وأوذوا فلا تبتئس بما يفعلون ، واصبر على ماتدعو إليه ولا يضيرنّك ما يأتون وما يذرون — قفى على ذلك ببيان أنهم لاستهزائهم به وشديد تكذيبهم كانوا يستعجلونه العذاب كما قال تعالى حكاية عنهم : « وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » ثم أنّبهم على إنكار ذلك العذاب وقد سبق وعد الله به فكان لزاما عليهم ألا يستعجلوه ، فإنهم لو عرفوا ما ينالهم من آلامه وشدائده ما طلبوا استعجاله ، فيوم عند ربك تصيبهم فيه المحن والشدائد كألف سنة لو بقوا وعذبوا فى الدنيا ، ثم ذكّرهم بأن كثيرا من القرى الظالمة أمهلت ولم تعذب ، لعلها ترعوى عن غيّها ثم أخذت أخذ عزيز مقتدر وحسابها مدّخر ليوم تشخص فيه الأبصار ، ثم أبان أن وظيفة الرسول إنما هى الإنذار والتحذير وليس

عليهم من حسابهم من شىء ، فإن شاء الله عجل لهم العذاب و إن شاء أخره عنهم ، وقد وعد الله المؤمنين الذين يعملون الصالحات بالمغفرة من الذنوب ودخول دار النعيم وأوعد الذين يثبطون العزائم عن قبول دعوة الإسلام بدوام العذاب فى نار الجحيم .

## الإيضاح

( و يستعجلونك بالعذاب ) أى و يستعجلك كفار قريش المكذبون بالله وكتابه ورسوله واليوم الآخر ـ مجىء العذاب الذى تحذرهم به وتوعدهم إياه ، إنكارا منهم لوقوعه واستهزاء بحلوله .

ثم بيّن أنه آت لامحالة فقال :

( ولن يخلف الله وعده ) أى وكيف ينكرون مجىء ذلك العذاب وقد وعد الله به وما وعد به كائن لامحالة ، وهو كما فعل بمن قبلكم يفعل بكم ، لأن ذلك هو نهجه الثابت وصراطه المستقيم ، وسيحل بكم مثل ما حل بغيركم .

( و إنّ يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون ) أى و إن قلتم إن العهد قد طال ولم يحل بهم العذاب فأين هو ؟ فإن الله حليم ، وألف سنة عندكم كيوم عنده ، فهو سينفذ وعده بعد أمد طويل عندكم قريب عنده كما قال : « إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا . وَنَرَاهُ قَرِيباً » فإذا تأخر عذاب الآخرة أمدا طويلا فلا يكون فى ذلك إخلاف للوعد ، فعشرون ألف سنة عند ربك كعشرين يوما عندكم .

والخلاصة — إن سنتى لابد من نفاذها ولابد من إهلاك الظالمين ولو بعد حين أمما وأفرادا فى الدنيا والآخرة أو عذابهم فى الآخرة فحسب مع الأكدار فى الدنيا وهم لايشعرون .

ثم أكد ما ذكره من عدم إخلاف الوعد و إن طال الأمد فقال :

( وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها و إلىّ المصير ) أى وكم من قرية أخرت إهلاكها من استمرارها على ظلمها فاغترت بذلك التأخير ، ثم أنزلت

بها بأسى وشديد انتقامى ، وحسابها بعدُ مدّخر ليوم الحساب حين لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

ولا يخفى مافى شديد الوعيد وعظيم التهديد .

ثم أبان لهم عظيم خطئهم فى طلب استعجال العذاب من الرسول بقوله :

( قل يأيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين ) أى قل يأيها المشركون المستعجلون مجىء العذاب : ليس ذلك إلىّ ، وإنما أرسلنى ربى نذيرا لكم بين يدى عذاب شديد وليس إلىّ من حسابكم من شىء ، بل أمر ذلك إلى الله إن شاء عجل لكم العذاب ، وإن شاء أخره عنكم ، وإن شاء تاب على من يتوب وينيب إليه : « لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ » .

ثم فصل هذا الإنذار بذكر الوعد للمتقين والوعيد للكافرين فقال :

( فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم ) أى فالذين آمنت قلوبهم وصدقوا إيمانهم بأعمالهم ـ لهم مغفرة لما سلف من سيئاتهم وثواب عند ربهم على ماقدموا من حسناتهم ، ولهم رزق كريم فى الجنة يفوق وصف الواصفين ومقال المادحين كما قال تعالى : « فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ » وفى الحديث : « فيها مالاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

( والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم ) أى والذين اجتهدوا فى رد دعوة الدين والتكذيب بها وثبطوا الناس عن متابعة النبى صلى الله عليه وسلم ظنا منهم أنهم يعجزوننا وأنهم لايبعثون ، فأولئك هم المقيمون فى النار المصاحبون لها لايخرجون منها .

ونحو الآية قوله : « الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ » .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٤) وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٥٧) .

## شرح المفردات

الرسول : من جاء بشرع جديد ، والنبى يشمل هذا ويشمل من جاء لتقرير شرع سابق كأنبياء بنى إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهما السلام ، والتمنى والأمنية : القراءة كما قال تعالى : « وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ » أى إلا قراءة ، وقال حسان فى عثمان حين قتل :

تمنى كتاب الله أول ليلة وآخرها لاقى حمام المقادر

وينسخ : أى يزيل ويبطل ، يحكم : أى يجعلها محكمة مثبتة لاتقبل الرد بحال ، فتنة : أى ابتلاء واختبارا ، مرض : أى شك ونفاق ، القاسية قلوبهم : هم الكفار المجاهرون بالكفر ، شقاق بعيد : أى عداوة شديدة ، فتخبت : أى تذل وتخضع ، مرية : أى شك ، بغتة : أى فجأة ، الساعة : الموت ، يوم عقيم : أى منفرد عن سائر

الأيام لا مثيل له فى شدته والمراد به الحرب الضروس ، الملك : أى التصرف والسلطان ، يحكم بينهم : أى يقضى بين فريق الكافرين والمؤمنين ، مهين : أى مذل جزاء استكبارهم عن الحق .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر فى الآيات السالفة أن قومه قد كذبوه بوسائل شتى من التكذيب فقالوا تارة إنه ساحر ، وأخرى إنه شاعر ، وثالثة إن القرآن أساطير الأولين ، ثم سلاه عن هذا بأن ليس بدعا من الرسل ، فكثير قبله قد كذبوا ، ثم ذكر أنهم لعظيم استهزائهم به وتهكمهم بما يبلغهم عن ربه ـ طلبوا منه استعجال العذاب الذى يعدهم به ـ أردف ذلك بذكر نوع آخر من التكذيب وهو إلقاؤهم الشبه والأوهام فيما يقرؤه على أوليائه من القرآن ليجادلوه بالباطل ويردوا ما جاء به من الحق ويكون فى ذلك فتنة لضعاف الإيمان وللكافرين ، وليزداد المؤمنون إيمانا ويقينا بأنه الحق من ربهم فتخبت له قلوبهم ، وإن هذه حالهم حتى يموتوا أو يأتيهم عذاب لا يبلغ الوصف كنه حقيقته ، وعندئذ يحكم الله بين عباده فيدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات النعيم ، ويجازى الذين كذبوا بآياته وكانوا فى مرية من رسالة رسوله بالعذاب المهين جزاء وفاقا على تدسية أنفسهم وتدنيسها بزائغ العقائد وسىء الأعمال وباطلها .

## الإيضاح

( وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ) أى وما أرسلنا قبلك رسولا ولا نبيا إلا إذا قرأ ألقى الشيطان على سامعيه وهو يتلو الوحى الذى أنزل إليه ـ شبهات فيما يقرأ فيقول قوم إنه سحر ويقول آخرون إنه نقله الرسول عن بعض الأولين وهكذا من الأباطيل والترّهات التى يتقولونها .

(فينسخ الله مايلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته ) أى فيزيل سبحانه تلك الخرافات التى علقت ببعض النفوس ، بأن يقيّض للدين من يدافع عنه ويدفع الشبهات ثم يجعل آياته محكمة مثبتة لاتقبل الرد بحال .

وخلاصة ذلك — إن الله حين أنزل القرآن وقرأه الرسول قال المشركون فيه ماقالوا ، ثم استبان الحق وجاءت غزوة بدر ونصر الله المسلمين الذين بشرهم كتابه بالنصر على أعدائهم كما قال : « وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ » استتب لهم الأمر ودخل أعداؤهم فى دينهم أفواجا « وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِىَ الْعُلْيَا » . وما مثل هذا إلا مثل النباتات الطفيلية التى تنبت فى الأرض بجانب مايزرع فيها من حنطة وفول وغيرهما مما يحتاج إليه الناس ، ولا تزال تتغذى من الأرض وتأخذ غذاء النبات النافع ، فلا يهدأ للزارع بال حتى يزيلها ويوفر غذاءها للنبات الذى هو فى أشد الحاجة إليه .

وما أشبه الليلة بالبارحة ، فإنك الآن لترى أهل أوربا يُرسلون الجيوش من القساوسة التى تفتح المدارس فى بلاد الشرق ويقولون للمسلمين : إن دينهم محشو بالخرافات والأكاذيب ويشكـكون من تعلموا فى تلك المدارس فيه ويصدّق بعض غوغائهم تلك الأباطيل حتى لقد قالوا إن هذا الدين لايعيش فى ظل العلم ولا يقبل الأفكار والآراء الراقية ، وهو والعلم عدوان لايجتمعان ، ومما جعل لهم بعض المعذرة فيما يقولون ، حال المسلمين من الخمول وسوء الأحوال وقبيح المعتقدات والأعمال مما جعلهم مُضْغة فى أفواه الأمم المتمدينة : « كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ » .

وإن الله لينسخ تلك الوساوس ويزيل هذه الأوهام ، فقد تصدى كثير من ذوى المعرفة لدحض تلك المفتريات ، فقام العالم الحكيم محمد عبده وألف كتابه [ الإسلام والنصرانية ] ودفع كثيرا من مطاعن أولئك المبشرين ، وقام بعده كثير من أهل الفقه بالدين فاحتذوا حذوه وواصلوا الليل بالنهار فى دحض تلك الشبه ، وإن الله ناصر دينه ولو كره الكافرون .

هذا وقد دس بعض الزنادقة فى تفسير هذه الآية أحاديث مكذوبة لم ترد فى كتاب من كتب السنة الصحيحة ، وأصول الدين تكذبها ، والعقل السليم يرشد إلى بطلانها وأنها ليست من الحق فى شىء ، وهى مما تشكك المسلمين فى دينهم وتجعلهم فى حيرة من أمر الوحى وكلام الرسول ، فيجب على العلماء طرحها وراءهم ظهريا ولا يضيعون الزمن فى تأويلها وتخريجها ، ولا سيما بعد أن نص الثقات من المحدّثين على وضعها وكذبها لمصادمتها لأصول الدين التى لاتقبل شكا ولا امتراء .

(والله عليم حكيم) أى والله عليم بكل شىء ، ومن ذلك مايصدر عن الشيطان وأوليائه فيجازيهم عليه أشد الجزاء ، حكيم فى أفعاله ، ومن ذلك أن يمكّن الشيطان من إلقاء الشبهات ، ليحاجّ أولياؤه بها ، فيتمكن المؤمنون من ردها ودحض المفتريات التى يتشدقون بها ، ويرجع الحق إلى نصابه ، فتظهر الحقيقة ناصعة بيضاء من بين تلك الظلمات ، فتمحو الظلام الذى كان عالقا بنفوس الذين فى قلوبهم مرض ، وتضىء آفاق العقول السليمة وتهديهم إلى طريق الرشاد ؛ وإلى الفريقين أشار بقوله :

(١) ( ليجعل مايلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم ) أى ليجعل مايلقيه الشيطان على قلوب أوليائه فتنة واختبارا للمنافقين الذين فى قلوبهم مرض وللكافرين الذين قست قلوبهم ، فلا تلين لقبول الحق ، ولا ترعوى عما هى فيه من الغىّ .

ثم بين مجانفة هذين الفريقين للحق وبعدهما عن الرشد لا إلى غاية فقال :

( وإن الظالمين لفى شقاق بعيد ) أى وإن هذين الصّنفين من الضُلّال لفى عداوة لأمر الله وبعد عن الرشاد والسداد بما لامطمع لهما معه فى النجاة والفوز برضا الله .

(٢) (وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم)

أى ولكى يعلم أهل العلم بالله أن الذى أنزله الله من آياته التى أحكمها ونسخ ما ألقى الشيطان ـ أنه الحق من ربهم فيصدقوا به وتخضع له قلوبهم وتذعن للإقرار به نفوسهم ، وتعمل بما فيه من عبادات وآداب وأحكام وهى مُثْلَجة الصدر هادئة مطمئنة ببرد اليقين والسير على نهج سيد المرسلين .

ثم بين حسن مآلهم وفوزهم بسعادة العقبى فقال :

( وإن الله لهادى الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ) أى وإن الله لمرشد الذين آمنوا به وصدقوا برسوله ، وموفقهم إلى الحق الواضح بنسخ ما ألقى الشيطان فى أمنية رسوله حين تلاوة الوحى ، وحفظ أصول الدين الصحيحة فى نفوسهم والعمل بها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

وخلاصة ذلك — إن الله ليهدى الذين آمنوا إلى تأويل ماتشابه من الدين وتفصيل ما أجمل منه بما تقتضيه الأصول المحكمة . فلا تلحقهم حَيْرة ولا تعتريهم شبهة ولا تزلزل أقدامهم ترّهات المبطلين .

ثم أردفه ببيان مآل الفريق الأول فقال :

( ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم ) أى ولا يزال الكافرون فى شك مما ألقى الشيطان فى قلوبهم حين قراءة القرآن عليهم حتى يأتيهم الموت فجأة وهم فى بيوتهم آمنون، أو يشتبكوا مع المؤمنين فى قتال يهلك فيه أبطالهم وصناديدهم كما حدث يوم بدر .

وقد جعل هذا اليوم عقيما ، لأن المقاتلين يُسمَّوْن أبناء الحرب ، فإذا هم قُتلوا وصف هذا اليوم بأنه عقيم .

وخلاصة هذا — إنه لا مطمح فى إيمانهم ، ولا لزوال المرية من قلوبهم ، فهم لايزالون كذلك حتى يهلكوا .

و بعد أن بين سبحانه حال الفريقين فى الدنيا أرشد إلى حالهم فى الآخرة فقال:

( الملك يومئذ لله يحكم بينهم ) أى إذا جاء يوم القيامة حكم ربهم بينهم بالحق

وجازى كلا منهما بما هو له أهل وبما أعد نفسه له فى الدنيا من عمل صالح زكى به نفسه وطهر روحه أو عمل سيئ دسّاها به فرانت على قلبه غشاوة الشكوك والأوهام واجترام المعاصى والآثام .

ثم فصل هذا الحكم والمحكوم عليهم فقال :

( فالذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جنات النعيم ) أى فالذين آمنوا بهذا القرآن وبمن أنزله وبمن جاء به وعمل بما فيه من أوامر ونواه ـ يثيبهم ربهم جنات النعيم يتمتعون فيها بما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، جزاء وفاقا على مازكوا به أرواحهم وأخلصوا له فى أعمالهم وراقبوا ربهم فى السر والعلن وخافوا عذابه فى ذلك اليوم الذى تشيب من هوله الولدان .

( والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين ) أى والذين كفروا بالله وكذبوا رسوله وجحدوا بآيات كتابه وقالوا إنما هو إفك افتراه محمد وأعانه عليه قوم آخرون ـ أولئك لهم عذاب عند ربهم يذلهم ويخزيهم كفاء استكبارهم عن النظر فيها وجحودهم بها عنادا وقد كان لهم فيها لو تأملوا حق التأمل ما يكون صادا لهم عن غيهم ورادعا لهم عن ضلالهم .

---

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩) ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٦٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٦١) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ

هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٦٢) .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر جلت قدرته أن الملك له يوم القيامة وأنه يحكم بين عباده المؤمنين والكافرين ، وأنه يدخل المؤمنين جنات النعيم ـ أردف ذلك بذكر وعده الكريم للمهاجرين فى سبيله بأنه يرزقهم الرزق الحسن و يدخلهم مدخلا يرضونه ، ثم بذكر وعده لمن قاتل مبغيا عليه بأن اضطر إلى الهجرة ومفارقة الوطن بأنه ينصره وهو قدير على ذلك ، إذ من قدر على إدخال الليل فى النهار و إدخال النهار فى الليل ، بأن يزيد فى أحدهما ما ينقصه من الآخر ـ يقدر على نصره ، وهو الثابت الإلهية وحده ، ولا يصلح لها إلا من كان كامل القدرة كامل العلم ، وأن ما سواه باطل لا يقدر على شىء .

أخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن سلمان الفارسى قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من مات مرابطا أجرى عليه الرزق وأمن من الفتانين واقرءوا إن شئتم : ( والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسنا و إن الله لهو خير الرازقين. ليدخلنهم مدخلا يرضونه و إن الله لعليم حليم ) » .

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن فضالة بن عبيد الأنصارى الصحابى أنه كان بموضع فمروا بجنازتين إحداهما قتيل والأخرى متوفى ، فمال الناس على القتيل ، فقال فضالة : مالى أرى الناس مالوا مع هذا وتركوا هذا ؟ فقالوا هذا القتيل فى سبيل الله ، فقال والله لا أبالى من أى حفرتيهما بعثت ، اسمعوا كتاب الله ( والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ) الآية .

وروى عن أنس أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المقتول فى سبيل الله والمتوفى فى سبيل الله بغير قتل هما فى الأجر شريكان » .

# الإيضاح

( والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسنا وإن الله لهو خير الرازقين ) أى والذين فارقوا أوطانهم وتركوا عشائرهم فى رضا الله وطاعته وجهاد أعدائه ، ثم قتلوا أو ماتوا وهم كذلك ـ ليثيبنّهم الله الثواب الجزيل جزاء ما ناضلوا عن دينه وأخلصوا فى الذود عنه ، وإن الله ليعطى من يشاء بغير حساب ، ويرزق الخلق كافة بارّهم وفاجرهم .

ثم بين هذا الرزق الحسن بقوله :

( ليدخلنهم مدخلا يرضونه ) أى ليدخلنّ المقتولين فى سبيله والموتى مهاجرين فى طاعة ربهم وذودا عن دينه ـ جنات النعيم ويكرمون فيها بما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، كما لا ينالهم فيها مكروه ولا أذى كما قال « لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلاَ تَأْثِيمًا . إِلاَّ قِيلاً سَلاَمًا سَلاَمًا » .

( وإن الله لعليم حليم ) أى وإن الله الذى عمت رحمته وعظمت نعمته ـ لعليم بمقاصدهم وأعمالهم وأعمال أعدائهم ، حليم فلم يعاجل هؤلاء المكذبين بالعقوبة جزاء تكذيبهم ومقاومتهم دعوة الدين .

( ذلك ) أى ذلك الرزق الحسن والمدخل الكريم لمن قتلوا فى سبيل الله أو ماتوا ، ولهم أيضا النصر فى الدنيا على أعدائهم وإلى ذلك أشار بقوله :

( ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله ) أى وإن من جازى من المؤمنين بمثل ما عوقب به ظالما من المشركين ، فقاتلهم كما قاتلوه ثم بغى عليه باضطراره إلى الهجرة ومفارقة الوطن ـ لينصرنه الله الذى لا يغالب ، ولينتقمنّ له من أعدائه ولينكّلنّ بهم ويمكننه منهم ويجعل كلمته العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

والخلاصة — إنه تعالى كما يدخلهم مدخلا كريما ، يعدهم بالنصر على أعدائهم إذا هم قاتلوهم وبغوا عليهم وأخرجوهم من ديارهم .

( وإن الله لعفوّ غفور ) أى وإن الله الذى أحاطت قدرته بكل شىء ـ ليعفو عن المؤمنين ، فيغفر لهم ما أمعنوا فيه من الانتقام وما أعرضوا عنه مما ندبه الله من العفو بمثل قوله : « وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ » وقوله : « فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ » وقوله : « وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى » وهم بفعلهم هذا تركوا ما كان أجدر بهم وأحرى بمثلهم .

والخلاصة — كأنه سبحانه قال : عفوت عن هذه الإساءة وغفرتها لهم لأنى أذنت بها .

ثم قرر نصره لعباده المؤمنين وأكده بقوله :

( ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ) أى ذلك النصر الذى أنصره لمن بُغِى عليه ، لأنى أنا القادر على ما أشاء ، ألا ترونى أدخل ما ينقص من ساعات الليل فى ساعات النهار ، وأدخل ما ينقص من ساعات النهار فى ساعات الليل ، وبهذه القدرة التى تفعل ذلك أنصر محمدا وصحبه على الذين قد بغوا عليهم وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم وآذوهم أشد الأذى على إيمانهم بالله وحده .

( وأن الله سميع بصير ) أى وأن الله سميع للأقوال وإن اختلفت فى النهار الأصوات بفنون اللغات ، بصير بما يعملون لا يغيب عنه شىء ولا يعزب عنه شىء وإن كان مثقال ذرة .

ولما وصف نفسه بما لا يقدر عليه غيره علل ذلك بقوله :

( ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل ) أى إن الاتصاف بكمال القدرة وكمال العلم بسبب أن الله هو الثابت لذاته ، وأنه لا مثيل له ولا شريك ، وأن الذى يدعون من دونه من الآلهة باطل لا يقدر على صنع شىء بل هو المصنوع الموجَد بعد العدم .

( وأن الله هو العلى الكبير ) أى وأن الله فوق كل شىء وكل شىء دونه ، وهو الكبير عن أن يكون له شريك ، إذ لا شىء أعلى منه شأنا ولا أكبر سلطانا .

وخلاصة ذلك — أفتتركون أيها الجهال عبادة من بيده النفع والضر وهو القادر على كل شيء وكل شيء دونه وهو فوق كل شيء وتعبدون من لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعا ولا ضرا؟ .

---

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٦٥) وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ (٦٦) .

## الإيضاح

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف عظيم قدرته وبالغ حكمته فى ولوج الليل فى النهار والنهار فى الليل ، ونبه بذلك على سابغ نعمه على عباده أردف ذلك بذكر أنواع أخرى من الدلائل على قدرته فقال :

( ١ ) ( ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة ) أى ألم تبصر أيها الرائى أن الله ينزل من السماء مطرا فيحيى به الأرض فتنبت ضروبا مختلفة من النبات بديعة الألوان والأشكال ذات خضرة سندسية تبهر العين بحسن منظرها وبديع تنسيقها .

( إن الله لطيف خبير ) أى إنه تعالى لطيف يصل علمه إلى الدقيق والجليل ، خبير بمصالح خلقه ومنافعهم .

ونحو الآية قوله تعالى : « وما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » .

(ب) ( له مافى السموات ومافى الأرض وإن الله لهو الغنى الحميد ) أى إن كل مافى السموات ومافى الأرض منقاد له غير ممتنع من التصرف فيه ، وهو الغنى عن حمد الحامدين ، لأنه كامل لذاته ، غنى عن كل ما عداه ، وقد فعل ما فعل إحسانا منه إلى عباده وتفضلا عليهم .

(ح) ( ألم تر أن الله سخر لكم مافى الأرض ) أى إنه تعالى سخر مافى ظاهر الأرض و باطنها لينتفع به الإنسان فى مصالحه ومرافقه المختلفة و يصرفه فيما أراد من شئون معايشه ، ولا يزال العلم يهديه إلى غريب الأمور مما لم يكن يخطر لأسلافه على بال مما لو حُدِّث به السالفون لقالوا إنه ترهات وأباطيل ولا صدقه بشر ، ولا يزال العلم يولد كل يوم جديدا : « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً » ويهتدى العقل إلى ماهو أشبه بالمعجزات لولا أن سُدّ أبواب النبوات .

ونحو الآية قوله : « وَسَخَّرَ لَكُمْ مَافِي السَّمٰوَاتِ وَمَافِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ » .

( ى ) ( والفلك تجرى فى البحر بأمره ) أى وسخر لكم السفن تجرى فى البحار برفق وتؤدة حاملة ما تريدون من نائى الأصقاع و بعيد المسافات من سلع وحيوان وأناسىّ و بذلك يتم تبادل مرافق الحياة بالأخذ والعطاء .

( ه ) ( و يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ) أى و إن الله يمسك أجرام الكواكب من شمس وقمر وكواكب نيرات بنظام الجاذبية ، إذ جعل لكل منها مدارا خاصا بها لاتعدوه بحال ، ولا تزال كذلك ما بقيت الحياة الدنيا ، حتى إذا اقتربت الساعة اختل نظامها وانتثرت فى الفضاء كما ألمع إلى ذلك سبحانه بقوله : « إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ . وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ » الآية .

ولولا هذا النظام الخاص لاصطدمت الكواكب العظيمة بعضها ببعض وفسد العالم الأرضى ولم يعش على ظهر البسيطة إنسان ولا حيوان .

( إن الله بالناس لرءوف رحيم ) أى إنه تعالى رحيم بهم ، إذ جعل هذه العوالم على تلك الشاكلة ، ليتسنى لهم البحث عن أسباب معايشهم وأسباب منافعهم ، وأوضح لهم مناهج الاستدلال بالآيات التكوينية والتنزيلية على وجوده و بعثة رسله .

( و ) ( وهو الذى أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ) أى وهو الذى أنعم عليكم بهذه النعم وجعل لكم أجساما حية بعد أن كنتم ترابا ، ثم يميتكم حين انقضاء آجالكم ثم يحييكم بالبعث والنشور إلى عالم آخر تلقون فيه حسابكم وجزاءكم ثم إلى نعيم أو جحيم .

ثم بين طبيعة الإنسان التى خلق عليها فقال :

( إن الإنسان لكفور ) أى وإن الإنسان لم يوجه همه إلى كل هذه الآلاء التى يتقلب فيها ليل نهار ، بل جحدها وجحد خالقها على وضوح أمرها ، وعبد غيره وجعل له الأنداد من الأصنام والأوثان .

ونحو الآية قوله : « كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » وقوله : « قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ » .

---

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ (٦٧) وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨) اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩) .

## شرح المفردات

المنسك : الشريعة والمنهاج ، ناسكوه : أى عاملون به ، والهدى : الطريق الموصل إلى الحق ، مستقيم : أى سوىّ لاعوج فيه .

## المعنى الجملى

بعد أن قدم عز اسمه ذكر نعمه وأنه رءوف بعباده رحيم بهم ، وأن الإنسان كفور بطبعه ، ومن ثم جحد الخالق لهذه النعم ـ أتبعه بزجر معاصريه عليه السلام من أهل الأديان السماوية عن منازعته ، بذكر خطئهم فيما تمسكوا به من الشرائع ، و بيان أن لكل أمة شريعة خاصة ، ثم أمره بالثبات على ماهو عليه من الحق ، وأنه لايضره عناد الجاحدين ، فالله هو الحكم بينهم و بينه يوم القيامة .

## الإيضاح

( لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه ) أى إنا أنزلنا لأهل كل دين من الأديان السماوية شريعة خاصة يعملون بها و يسيرون على نهجها لايتخطونها إلى غيرها ، فالأمة التى كانت من مبعث موسى إلى مبعث عيسى منسكها مافى التوراة ، والأمة التى من مبعث عيسى إلى مبعث محمد صلى الله عليه وسلم منسكها مافى الإنجيل ، وأمة محمد صلى الله عليه وسلم وهم من وجد حين مبعثه إلى يوم القيامة منسكهم مافى القرآن ، لأن لكل زمان مايليق به من الشرائع التى تناسب من فيه فى تلك الحقبة .

( فلا ينازعنك فى الأمر ) أى فلا ينبغى لهم أن ينازعوك فى أمر هذا الدين ، فإن تعيينه تعالى لكل أمة شريعة خاصة موجب لطاعة هؤلاء لك وعدم منازعتهم إياك فى أمر هـذه الشريعة زعما منهم أن شريعتهم هى ما عين لآبائهم من التوراة والإنجيل ، فذلك خطأ منهم ، فإن ذلك إنما كان شريعة لمن مضى قبل نسخه بالقرآن .

والخلاصة — اثبت أيها الرسول على دينك ثباتا لا يطمعون أن يجذبوك منه ليزيلوك عنه ، والمراد بذلك تهييج حميّته عليه السلام و إلهاب غضبه لله ولدينه ، ومثل هذا كثير فى كتاب الله ، وكأنه قد قيل له تأسّ بالأنبياء قبلك فى متاركة القوم الظالمين والإمساك عن مجادلتهم بعد اليأس من إيمانهم .

( وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم ) أى وادع هؤلاء المنازعين إلى توحيد الله وعبادته ، إنك لعلى طريق يهدى إلى الحق ، وشريعة توصل إلى السعادة .

ونحو الآية قوله : « وَلاَ يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ » .

( وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون ) أى وإن جادلك هؤلاء المشركون فى نسكك بعد أن ظهر الحق ولزمتهم الحجة ـ فقل لهم على سبيل التهديد والوعيد : الله عليم بما تعملون وبما أعمل ، ومجازٍ كلا بما هو له أهل .

ونحو الآية قوله : « وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِىءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ » وقوله : « هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ » .

وبعد أن أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالإعراض عنهم وكان ذلك شديد الوقع على النفس سلاه بأن الله سيجازيهم لا محالة يوم القيامة على ما يقولون ويفعلون فقال :

( الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون ) أى الله يقضى بين المؤمنين منكم والكافرين يوم القيامة فيما كنتم تختلفون فيه من أمر الدين ، فيتبين المحق من المبطل .

ونحو الآية قوله : « فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ » الآية .

وقصارى ما سلف — ادع إلى شريعتك ، ولا تخصّ بالدعاء أمة دون أمة ، فكلهم أمتك ، وإنك لعلى طريق واضحة الدلالة تصل بمن اتبعها إلى سبيل السعادة ، فإن عدلوا عن النظر فى الأدلة إلى المراء والتمسك بالعادات وبما وجدوا عليه الآباء

والأجداد ، فدعهم فى غيهم يعمهون ، فقد أنذرتَ ، وما عليك إلا البلاغ ، وقل لهم مهددا منذرا من حكم يوم القيامة وهو متردد بين جنة ونار وثواب وعقاب : الله يحكم بيننا و بينكم و يتبين المحق من المبطل و يجازى كلا بما يستحق .

---

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِى كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ (٧٠) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٧١) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٢) .

## شرح المفردات

سلطانا : أى حجة و برهانا ، نصير : أى ناصر ومعين ، يسطون : أى يبطشون بهم من فرط الغيظ .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه يحكم بين عباده يوم القيامة و يجازى كلا من المسىء والمحسن بما هو له أهل — أعقب هذا ببيان أنه العليم بما يستحقه كل منهم فيقع حكمه بينهم بالعدل ، ثم أرشد إلى أنه على وضوح الدلائل وعظيم النعم عليهم عبدوا غيره مما لم يقم الدليل على وجوده ، وأنهم مع جهلهم إذا نُبِّهوا إلى الحق وعرضت عليهم المعجزة وتلى عليهم الكتاب الكريم ظهر فى وجوههم الغيظ والغضب وهموا بالبطش بمن يذكرهم بآياته إنكارا منهم لما خوطبوا به ، ثم أبان لهم أن ماينالهم

من النار التى يقتحمونها بأفعالهم وأقوالهم أعظم مما ينالهم من الغم والغيظ حين تلاوة هذه الآيات .

## الإيضاح

( ألم تعلم أن الله يعلم مافى السماء والأرض ) أى قد علمت أيها الرسول أن علم الله محيط بما فى السموات وما فى الأرض لايعزب عنه مثقال ذرة فيهما ولا أصغر من ذلك ولا أكبر وهو حاكم بين خلقه يوم القيامة على علم منه بما عملوه فى الدنيا ، فيجازى المحسن منهم بإحسانه والمسىء بإساءته .

( إن ذلك فى كتاب ) أى إن علمه بذلك فى اللوح المحفوظ الذى كتب فيه ربنا قبل أن يخلق ماهو كائن إلى يوم القيامة ؛ ويرى أبو مسلم الأصفهانى أن المراد بالكتاب فى مثل هذا الحفظ والضبط الشديد بحيث لايغيب عنه مثقال ذرة .

( إن ذلك على الله يسير ) أى إن علمه تعالى بما فى السماء والأرض وكتبه فى اللوح المحفوظ والفصل بين عباده يوم القيامة ـ يسير على الله إذ لايخفى عليه شىء ولا يتعسر عليه مقدور .

ثم حكى سبحانه بعض أباطيل المشركين وأحوالهم الدالة على سخافة عقولهم فقال :

( ويعبدون من دون الله مالم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم ) أى ويعبد هؤلاء المشركون بالله من دونه مالم ينزل بجواز عبادته حجة وبرهانا من السماء فى كتاب من كتبه التى أنزلها إلى رسله ، وما ليس لهم بجواز عبادته علم من ضرورة العقل ، وإنما هو أمر تلقوه عن آبائهم وأسلافهم بغير حجة ولا برهان .

والخلاصة — ويعبدون من دون الله مالم يقم دليل من الوحى ولا من العقل على صحة عبادته .

ونحو الآية قوله : « وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ » .

( وما للظالمين من نصير ) أى وليس للظالمين من ينصرهم يوم القيامة فينقذهم من عذاب الله ويدفع عنهم عقابه إذا أراد ذلك .

( وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر ) أى وإذا تتلى على المشركين العابدين من دون الله مالم ينزل به سلطانا ـ آيات القرآن الحجج والبينات ، بدت على وجوههم أمارات الإنكار بالتجهم والعبوس والبسور ونحو ذلك مما يدل على الغيظ والحفيظة الكامنة فى نفوسهم مما يسمعون منها .

ثم بين مقدار ذلك الغيظ ومبلغ أمره فقال :

( يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا ) أى هم من شدة حنقهم على من يتلونه من المؤمنين يكادون يثبون عليهم ويبطشون بهم ويبسطون أيديهم وألسنتهم بالسوء .

وقصارى ذلك — إنهم قد بلغوا من الجهالة حدا لاينفع فيه العلاج ولا تقنع فيه البينات والحجج .

ثم ذكر لهم أن هذا الغيظ الكمين فى نفوسهم ليس بشىء إذا قيس بماسيلاقونه من العذاب يوم القيامة فقال :

( قل أفأنبئكم بشر من ذلكم ؟ ) أى قل لهم : أتسمعون فأخبركم بشر من ذلكم الذى فيكم من الغيظ من التالين للآيات حتى قاربتم أن تسطوا بهم وتمدّوا إليهم أيديكم وألسنتكم بالسوء ؟ .

ثم أجاب عن هذا الاستفهام فقال :

(النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير) أى النار وعذابها أشق وأعظم مما تخوّفون به أولياء الله المؤمنين فى الدنيا ومما تنالون منهم إن نلتم بإرادتكم واختياركم .

( و بئس المصير ) أى و بئس النار موئلا ومُقاما لهؤلاء المشركين بالله .
ونحو الآية قوله : « إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا ومُقَامًا » .

---

يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤) اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٧٦) .

## شرح المفردات

ضرب : أى جعل ، والمَثل والمِثل : الشبه ، لايستنقذوه : أى لايقدروا على استنقاذه ، ماقدروا الله : أى ماعظموه ، عزيز : أى غالب على جميع الأشياء ، يصطفى : أى يختار .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف أنهم يعبدون من دون الله مالا حجة لهم عليه من الوحى ولا دليل عليه من العقل ـ أردف هذا بما يدل على إبطاله و يؤكد جهلهم بمقام الألوهية وما ينبغى أن يكون لها من إجلال وتعظيم ، ثم أعقب ذلك ببيان أنه سبحانه يصطفى من الملائكة والناس لرسالته من يشاء وهو العليم بمن يختار « اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » .

روى أن الوليد بن المغيرة قال : أأنزل عليه الذكر من بيننا ؟ فأنزل الله الآية : « اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً ومِنَ النَّاسِ » .

وأخرج الحاكم وصححه عن عكرمة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله اصطفى موسى بالكلام وإبرهيم بالخُلَّة » .

## الإيضاح

( يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ) أى يأيها الناس جعل المشركون لى أشباها وأندادا وهى الآلهة التى يعبدونها معى ، فأنصتوا وتفهموا حال ما مثلوهم وجعلوهم لى فى عبادتهم إياهم أشباها وأمثالا .

ثم بين حال هؤلاء الأشباه والأمثال فقال :

( إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ) أى لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأوثان على أن يخلقوا ذبابة واحدة على صغر حجمها وحقارة شأنها ما قدروا وما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

روى عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله عز وجل : ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى ، فليخلقوا ذَرَّة فليخلقوا شعيرة » .

( وإن يسلبهم الذباب شيئا لايستنقذوه منه ) أى وإن يسلب الذباب الآلهة والأوثان شيئا مما عليها من طيب وما أشبهه ـ لاتستنقذ ذلك منه على ضعفه .

والخلاصة — إنهم عاجزون عن خلق ذباب واحد ، بل أعجب من ذلك أنهم عاجزون عن مقاومته والانتصار منه لو سلبهم شيئا مما عليهم من طيب ونحوه .

وفى ذلك إيماء إلى أنهم قد بلغوا غاية الجهالة ، وأشركوا بالله القادر على كل شىء آلهتهم من الأصنام والأوثان التى لاتقدر على خلق أحقر المخلوقات وأصغرها وهو الذباب ولو اجتمعت له ، ولا تستطيع أن تنتصر منه لو سلبها شيئا .

( ضعف الطالب والمطلوب ) أى عجز الطالب وهو الآلهة أن تستنقذ من المطلوب وهو الذباب ما سلبها إياه من الطيب وما أشبهه .

وقصارى هذا — إنه سبحانه وصف هذه الآلهة بما وصف للدلالة على مهانتها وضعفها تقريعا منه لعبدتها من مشركى قريش وكأنه قيل لهم : كيف تجعلون لى مثلا فى العبادة ، وتشركون معى فيها ما لاقدرة له على خلق ذباب ، و إن أخذ منه الذباب شيئا لم يقدر أن ينتصر منه ، وأنا الخالق مافى السموات والأرض ومالك جميع ذلك والحيى ما أردت والمميت — إن فاعل ذلك بلغ غاية الجهل وعظيم السفه .

ثم زاد هذا الإنكار توكيدا فقال :

( ماقدروا الله حق قدره ) أى ماعظموه حق التعظيم ، إذ عبدوا معه غيره من هذه الأصنام التى لا تقاوم الذباب لضعفها ولا تنتصر منه إن سلبها شيئا .

( إن الله لقوى عزيز ) أى إنه تعالى قوى لايتعذر عليه شىء ، و بقدرته خلق كل شىء ، عزيز لايغالب ، لعظمته وسلطانه ، ولا يقدر شىء أن يسلبه من ملكه شيئا ، وليس كآلهتكم التى تدعونها من دون الله .

ونحو الآية قوله : « وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » وقوله : « إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ » .

و بعد أن ذكر ما يتعلق بالإلهيات ذكر ما يتعلق بالنبوات فقال :

( الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ) أى الله يختار من الملائكة رسلا يتوسطون بينه و بين الأنبياء بالوحى ، و يصطفى من الناس رسلا يدعون عباده إلى مايرضيه و يبلغونهم مانزّله عليهم من وحيه إرشادا لهم وتشريعا للأحكام التى فيها سعادتهم فى دنياهم وآخرتهم .

( إن الله سميع بصير ) أى إنه تعالى سميع لأقوال عباده ، بصير بهم فيعلم من يستحق أن يختار منهم لهذه الرسالة .

( يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ) أى يعلم ما كان بين أيدى ملائكته ورسله من قبل أن يخلقهم ، و يعلم ما هو كائن بعد فنائهم .

وخلاصة ذلك — يعلم مستقبل أحوالهم وماضيها .

( و إلى الله ترجع الأمور ) أى و إليه ترجع الأمور يوم القيامة ، فلا أمر ولا نهى لأحد سواه ، وهو يجازى كلا بما عمل إن خيرا و إن شرا .

---

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَـٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨) .

## شرح المفردات

فى الله : أى فى سبيله ، والجهاد كما قال الراغب : هو استفراغ الوسع فى مجاهدة العدو ، وهو ثلاثة أضرب :

( ا ) مجاهدة العدو الظاهر كالكفار .

(ب) مجاهدة الشيطان .

(حـ) مجاهدة النفس والهوى ، وهذه أعظمها ؛ فقد أخرج البيهقى وغيره عن جابر قال : « قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم قوم غزاة فقال : قدمتم خير

مقدم ، قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، قيل وما الجهاد الأكبر ؟ قال : مجاهدة العبد هواه » .

والمراد بالجهاد هنا ما يشمل الأنواع الثلاثة ، كما يؤيده ما روى عن الحسن أنه قرأ الآية وقال : « إن الرجل ليجاهد فى الله تعالى وما ضرب بسيف » واجتباكم : أى اختاركم ، حرج : أى ضيق بتكليفكم ما يشق عليكم ، واعتصموا بالله : أى استعينوا به وتوكلوا عليه ، مولاكم : أى ناصركم .

## المعنى الجملى

بعد أن تكلم فى الإلهيات ثم فى النبوات ـ أتبعهما بالكلام فى الشرائع والأحكام.

## الايضاح

( يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ) أى يأيها الذين صدقوا الله ورسوله ، اخضعوا لله وخروا له سجدا واعبدوه بسائر ما تعبّدكم به وافعلوا الخير الذى أمركم بفعله من صلة الأرحام ومكارم الأخلاق ، لتفلحوا وتفوزوا من ربكم بما تؤملون من الثواب والرضوان .

( وجاهدوا فى الله حق جهاده ) أى وجاهدوا فى سبيل الله جهادا حقا خالصا لوجهه لاتخشون فيه لومة لائم .

( هو اجتباكم ) أى هو اختاركم من سائر الأمم ، وخصكم بأكرم رسول وأكمل شرع .

( وما جعل عليكم فى الدين من حرج ) أى وما جعل عليكم فى الدين الذى تعبدكم به ضيقا لامخرج لكم منه ، بل وسع عليكم وجعل لكم من كل ذنب مخلصا ، فرخص لكم فى المضايق ، فالصلاة وهى أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين تجب

فى الحضر أربعا وفى السفر تقصر إلى اثنتين ، و يصليها المريض جالسا ، فإن لم يستطع فعلى جنبه، وأباح الفطر حين السفر وحين الإرضاع والحمل والشغل فى شاق الأعمال ، ولم يوجب علينا الجمعة فى المساجد حين السفر أو الخوف من عدو أو سبع أو مطر إلى نحو أولئك ، كما فتح لكم باب التوبة وشرع لكم الكفارات فى حقوقه ودفع الدية بدل القصاص إذا رضى الولى .

ونحو الآية قوله سبحانه : « فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ » وقوله : « يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ » وقوله : « رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا » .

( ملة أبيكم إبراهيم ) أى وملتكم هى ملة أبيكم إبراهيم الحنيفية السمحة التى لم يعتورها جنف ولا إشراك .

ونحو الآية قوله تعالى : « قُلْ إِنَّنِى هَدَانِى رَبِّى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا » الآية .

( هو سماكم المسلمين من قبل وفى هـذا ) أى إن الله سماكم يا معشر من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ـ المسلمين فى الكتب المتقدمة وفى هذا الكتاب .

وخلاصة هذا — إنه تعالى ذكر أنه اختارهم من بين سائر الأمم ، ثم حثهم على اتباع ما جاءهم به الرسول لأنه ملة أبيهم إبراهيم ، ثم نوّه بذكره والثناء عليه فى كتب الأنبياء قبله وفى القرآن .

( ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس ) أى إنما جعلكم هكذا أمة وسطا عدولا مشهودا بعدالتكم بين الأمم ، ليكون محمد صلى الله عليه وسلم شهيدا عليكم يوم القيامة بأنه قد بلغكم ما أرسل به إليكم ، وتكونوا شهداء على الناس بأن الرسل قد بلغوهم ما أرسلوا به إليهم .

و إنما قبلت شهادتهم على الناس لسائر الأنبياء ، لأنهم لم يفرقوا بين أحد منهم وعلموا أخبارهم من كتابهم على لسان نبيهم ، ولاعتراف سائر الأمم يومئذ بفضلهم على سواهم ، وقد تقدم ذكر هذا فى سورة الأنعام عند قوله : «وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا » الآية .

ولما ندبهم لأداء الشهادة على الأمم جميعا طلب منهم دوام عبادته والاعتصام بحبله المتين فقال:

( فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم ) أى فقابلوا هذه النعم العظيمة بالقيام بشكرها فأدوا حق الله عليكم بطاعته فيما أوجب وترك ما حرم ، ومن أهم ذلك إقامة الصلاة التى هى وصلة بينكم و بين ربكم ، وإيتاء الزكاة التى هى طُهْرة أبدانكم ، وصلة مابينكم و بين إخوانكم ، واستعينوا بالله فى جميع أموركم ، وهو ناصركم على من يعاديكم .

ثم علل الاعتصام به بقوله :

( فنعم المولى ونعم النصير ) أى إن من تولاه كفاه كل ما أهمه ، و إذا نصر أحدا أعلاه على كل من خاصمه ، إذ لاناصر فى الحقيقة سواه ولا ولىّ غيره ، فله الحمد وهو رب العالمين .

## خلاصة ما تضمنته السورة من الحكم والأحكام

(١) وصف حال يوم القيامة وما فيه من شدائد وأهوال تشيب منها الولدان .

(٢) جدال عبدة الأصنام والأوثان بلا حجة ولا برهان .

(٣) إثبات البعث و إقامة الأدلة عليه .

(٤) وصف المنافقين المذبذبين فى دينهم وعدم ثباتهم على حال واحدة .

(٥) ما أعد الله لعباه المؤمنين من الثواب المقيم فى جنات النعيم .

(٦) بيان أن الله ناصر نبيه ومظهر دينه على سائر الأديان .

(٧) بيان أن الله يحكم يوم القيامة بين عباده من أرباب الديانات المختلفة ويجازى كلا بما يستحق .

(٨) إقامة الأدلة على وجود خالق السموات والأرض وبيان أن العالم كله خاضع لقدرته .

(٩) أمر المؤمنين بقتال المشركين الذين أخرجوهم من ديارهم ، وبيان أن هذا القتال لابد منه لنصرة الحق فى كل زمان ومكان وأن الله ينصر من يدافع عنه .

(١٠) تسلية الرسول على ما يناله من أذى قومه وأنهم ليسوا بدعا فى الأمم ، فكثير ممن قبلهم كذبوا رسلهم ثم كانت العاقبة للمتقين ، وأهلك الله القوم الظالمين ، والعبرة ماثلة أمامهم فى حلهم وترحالهم .

(١١) بيان أن المفسدين يلقون الشبهات على الحق ليزلزلوا عقائد المؤمنين ، لكنها لاتلبث أن تزول وينكشف نور الحق ويزيل ظلام الباطل .

(١٢) الثواب على الهجرة لله ورسوله سواء قتل المهاجر أو مات .

(١٣) وصف حال الكافرين إذا تلى عليهم القرآن ، بما يظهر على وجوههم من أمارات الغضب .

(١٤) بيان أن الله يرسل رسلا من الملائكة ورسلا من البشر وأن الله عليم بمن يصلح لهذه الرسالة .

(١٥) أمر المومنين بدوام الصلاة والزكاة وفعل الخيرات والجهاد حق الجهاد فى سبيل الحق .

(١٦) بيان أن الدين يسر لاعسر ، وأنه كملة إبراهيم سمح لاشدة فيه .

(١٧) بيان أن الرسول شهيد على أمته يوم القيامة وأن هذه الأمة تشهد على الأمم السالفة بأن رسلهم قد بلغوهم شرائع الله وما قصروا فى ذلك .

اللهم ألهمنا الحق واهدنا سبيل الرشاد وتقبل أعمالنا ، إنك أنت السميع المجيب .

قد انتهى تفسير هـذا الجزء فى اليوم الثامن عشر من ذى الحجة سنة ثلاث وستين وثلثمائة وألف بعد الهجرة بمدينة حلوان من أرباض القاهرة قاعدة الديار المصرية ، وفقنا الله لإتمام تفسير كتابه الكريم .

obeikandl.com